

المحاضرة التمهيديّة

مقدمة في معنك القضايا الثقافية المعاصرة:

تعريف الثقافة:

هي: جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها. وتشمل: الفنون والآداب وطرائق الحياة.

كما تشمل: الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات. هذا هو التعريف العالمي للثقافة.

والتعريفات الأخرى لا تبعد عن إطاره مثل ما جاء في منظمة الإسكو وهي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وكذلك ما جاء عن الإسكو وهي المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم.

- والثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائناً يتميز بالإنسانية، والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي، فعن طريقها نهتدي إلى القيم ونمارسها.
- إن الثقافة تتمثل فيما يتعلق بالإنسان من حيث هو إنسان، فكل ما يتعلق بالإنسان من حيث إنسانيته فهو ثقافة.

ويمكننا من خلال التعريف السابق أن نضع الملحوظات الآتية:

- ❖ إن قضايا الثقافة قضايا تهم الإنسان بصفته الإنسانية؛ لذلك قلنا: العقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات ولم نقل: الطب أو الكيمياء أو الهندسة لأنها أشياء مادية أما الأخلاق ومثيلائها فهي جانب إنساني روحي؛ أي: قضايا ذات بعد إنساني.
- ❖ هذه العناصر متداخلة وليست عناصر مفصولة عن بعضها البعض بل هي بناء متكامل؛ أي: كل مركب وهناك معتقدات تقوم عليها قيم.
- ❖ إن هذه الثقافة ليست معارف نظرية؛ أي: ليست فلسفة أو فكراً مجرداً في عقل إنسان أو فيلسوف أو سطرراً كتاب بل الثقافة حياة جماعية وواقع فكري وسلوكي يتحرك به الناس؛ أي: علم وعمل مترابطان.
- ❖ إن الثقافة ليست تمييزاً فردياً بل هي جماعية؛ بمعنى أن الشخص يعيش الثقافة في ظل مجتمع أو أمة تعيش هذه الثقافة، ومن الصعب أن يعيش الإنسان بعيداً عن ثقافته، لذلك يعاني المغترب ونجده يبحث عن أقلية أو أسرة تتفق معه في الثقافة.
- ❖ إن الثقافة بمجموعها تمثل تمييزاً للمجتمع أو الأمة عن المجتمعات والأمم الأخرى؛ أي: إن الأمم تختلف وتتمايز عن بعضها في الثقافات وليس بالجوانب المادية ولا استعمال السيارات ولا الطب التشريحي ولكن بين المسلم والغربي والهندوسي التمايز بالثقافة والعقائد والنظم والأعراف.

عناصر الثقافة:

للثقافة ثلاثة عناصر أساسية هي التي تشكل ثقافة الأمم مهما اختلفت؛ فأي ثقافة في العالم لا بد أن تحوي هذه الثلاثة العناصر بدائية أو متحضرة، كتابية أو ليست كتابية؛ بمعنى أن الاختلاف ليس على وجود هذه العناصر إنما الاختلاف في نوعية هذه الثقافة من مجتمع إلى آخر. والعناصر هي: 1- تفسير الوجود. 2- القيم. 3- النظم.

عناصر الثقافة / الأول: تفسير الوجود

هي تلك الإجابة التي يشعر الإنسان - أي إنسان - أنها مطلبٌ لديه؛ وهي عموماً إجابات الأسئلة الوجودية: من أنا؟ كيف جنت؟ ما هدف وجودي؟ ما هو مصيري؟ ماذا بعد الحياة؟ كيف جاء هذا الكون وما علاقتي به؟ هل هذا الكون له إله؟ وكم إله له؟ إلخ ولا يهدأ الإنسان ولا يقر له قرارٌ حتى يجد إجاباتٍ بغض النظر عن صحتها؛ سواء كانت الإجابات ربّانية أو خرافية أو أسطورية أو فلسفية؛ فإن كانت صحيحةً هدأت نفسه واطمأنت، وإلا فلا.

عناصر الثقافة / الثاني: القيم

هي المعايير التي يتعامل معها الإنسان في الحياة مثل العدل، الصدق، الوفاء. وهي تلك المثل التي تتميز بها الحياة الإنسانية عن الحياة الحيوانية. أو هي القواعد التي يقيم الناس عليها حياتهم ليرتفعوا بها عن الحياة الحيوانية. وهي على أنواع:

- قيم فكرية (قيم الحق): معايير تحكم حركة الإنسان الفكرية.
- قيم الخير: القيم الأخلاقية: الصدق، الوفاء، البر، الحياء.
- قيم الجمال: قيم الذوق ورؤية الجماليات.

عناصر الثقافة / الثالث: النظم التشريعية في جوانب الحياة

القوانين أو التعاليم والأعراف والتقاليد أو الشعائر التي يمارسها الإنسان في حياته سواء اللصيقة بالإنسان (العبادة، الأخلاق) أو ما دونها (النظم التعليمية، الإعلامية، الإدارية) وتشمل كذلك التشريعات التاريخية التي توارثتها الأجيال وأصبحت قانوناً ملزماً سواء كانت مدروسة أو غير مدروسة مثل نظم العشائر والبدو وهي نظم لا يستطيع الإنسان أن ينفك عنها. من خلال هذه العناصر تتشكل شخصية الإنسان وتبنى ثقافته.

مَعْنَى الْقَضَايَا الثَّقَافِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ:

هي الموضوعات أو المسائل أو المشكلات التي تثيرها بعض جوانب الثقافة أو عناصرها؛ إما ما يتعلق منها بالوجود أو بالقيم أو بالنظم، وتتناولها في صيغة قضايا تواجهنا في واقعنا المعاصر الذي نعيشه، ونحتاج تجاهها إلى موقف نحدّد به وجهتنا.

مُسَوِّغَاتُ الْمَقَرَّر:

حاجة الطالب إلى دراسة بعض القضايا الثقافية المعاصرة وتجليتها حقيقتها وموقف الإسلام منها؛ باعتبارنا مسلمين ومعاصرين نحتاج إلى معرفة الموقف الإسلامي الصحيح من مثل هذه القضايا التي تمس حياتنا وتوجه أفكارنا ولها أثر على سلوكنا فرادى وجماعات.

انتهاء المحاضرة التمهيديّة

المحاضرة الأولى الوساطة

مقدمة:

الوساطية سمة هذه الأمة، وبها تُعرف دون الأمم، بل هي ميزة ميزها الله ﷻ بها على غيرها، ورد وصف الأمة بها في القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. قال ابن تيمية رحمه الله: ((قد خص الله ﷻ محمداً ﷺ بخصائص ميزه بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعةً ومنهاجاً أفضل شرعة، وأكمل منهاج مبيّن، كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس... وجعلهم وسطاً عدلاً خياراً؛ فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه، وشرائع دينه من الأمر والنهي والحلال والحرام)). ومع كون الوساطية سمة من سمات الأمة فإنه يتنازعها في الواقع العديد من الأطراف، منهم الجافي والمغالي، ومنهم من يأخذ بها في طرف دون طرف. بل تستخدم الوساطية أحياناً لتمرير بعض المفاهيم الخطأ، وتبليس الحق بالباطل، أو توظف لأغراض ظاهرها الدين وباطنها الدنيا، وتضيق الوساطية بين الإفراط والتفريط. ومن هنا كان من المهم بيان الوساطية ومجالاتها ومنهجها.

مفهوم الوساطية:

ليس المقصود بالوساطية أنها ملتقى الطرفين دائماً لأن هذه الأمة آخر الأمم، وإنما المقصود بها أن هذه الأمة أمة خيارٍ عدولٍ؛ لقوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. ولقول النبي ﷺ: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة)). والوساطية حالة محمودة تدفع صاحبها للانتماء بهدي الإسلام دون انحراف عنه، أو تغيير فيه، بل تستقي الهدى الصادق من النبع الصافي لتجعل الأمة عادلة وتقيم العدل بين الناس، وتنشر الخير، وتحقق عمارة الأرض بوحدانية الله، فيعطى في ظل الإسلام كل ذي حق حقه. وقد أشار القرآن إلى الوساطية بمعنى الخيرية في آيتين من خمس آيات نصت على لفظة الوساطية:

الأولى في قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. والثانية في قوله ﷻ: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: أعدائهم وأرجحهم عقلاً. كما أن الوساطية تعني أعدل الأحوال؛ كما جاء في حديث النبي ﷺ للثلاثة الرهط حين تقالوا عبادته ﷻ، فقال لهم: ((أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)). وقد فهم الصحابة والسلف ذلك المعنى من الوساطية؛ فنقل عن الإمام علي ﷺ قوله: عليكم بالنمط الأوسط؛ فإنه ينزل العالي، وإليه يرتفع النازل. وفي رواية: يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: إن من أحب الأمور إلى الله القصد في الجدة، والعفو في المقدرة، والرفق في الولاية، وما رفق عبدٌ بعبدٍ في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة. وقد عني النبي ﷺ بالوساطية أيضاً أنها البعد عن الشطط والانحراف واللغو؛ فقال ﷻ: ((وأيامكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)). وقال صلى ﷺ: ((يسرّوا ولا تعسرّوا، وبشروا ولا تنفروا؛ إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)). وتقوم وساطية الإسلام على قواعد من القرآن والحديث النبوي. وفي قول الله ﷻ في محكم التنزيل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أوضح الطبري هذا التشبيه بقوله: والوسط في كلام العرب: الخيار... ثم قال: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين. وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه،

ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم - أي: المسلمين - أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها... والخيار من الناس: عدوئهم. وقال الرازي الوسط: هو العدل في قول جماعة بدليل الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى، أما الآية فهي: **﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾**، والخبر: ما رواه القفال عن الثوري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **((أمة وسطاً؛ قال: عدلاً))**. وما رواه ابن السمعاني عن علي رضي الله عنه مرفوعاً: **((خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا أَوْ أَوْسَطُهَا))**. وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما عند الديلمي: **((خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا))**. والشعر قول زهير:

هُمْ وَسَطٌ يَرْضَى الْأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى الْيَلِيَّاتِ بِمُعْظَمِ

والنقل كما قال الجوهري في **((الصحيح))**: **((أمة وسطاً؛ أي: عدلاً))**، وأكد القرطبي تفسير الوسط بأنه العدل. فثبت أن الأمة الإسلامية متصفة بالعدالة؛ مما جعلها أهلاً لأداء الشهادة على الأمم الأخرى بأن رسلم بلغوهم برفوهم رسالات ربهم، ورسولنا شاهد علينا بأنه بلغنا الرسالة، وأدى الأمانة. كما ثبت عند القائلين بتفسير الوسط بأنه الخيار من كل شيء أن الأمة الإسلامية معتدلة متوسطة في رسالتها وشريعتها، ومبادئها وقيمتها، تلتزم الصراط السوي، وتلتزم منهج الاعتدال، وتتجه بإخلاص منقطع النظر لإصلاح الأمم والشعوب والأفراد بما يحقق لهم السعادة والنجاة. ويكفل لهم عز الدنيا، والفلاح في الآخرة على أساس الجمع بين المثل العليا والواقع المشاهد. ثم إن اتصاف الأمة الإسلامية بالعدالة والخيرية يؤهلها لأن تكون أمة القيادة والتوجيه، لانتزامها شرف الكلمة والإحسان والعدل، والتوازن والاعتدال، ولصواب عقيدتها، وإحكام نظامها وشريعتها ومنهجها.

انتهاء المحاضرة الأولى

المحاضرة الثانية

تابع الوَسْطِيَّة

وَسْطِيَّةُ الْأُمَّةِ وَالِدِينِ وَالرَّسَالَةِ:

والمعنى في هذا السياق القرآني ينصرف إلى أمور ثلاثة:

أولها: الأمة الوسط. **وثانيها: الدين الوسط.** **وثالثها: الرسالة الوسط.**

فالأمة الوسط التي تدين بالدين **الوسط** وهي ذات رسالة **وسطية**، تحمل مبادئ الإيمان والحرية والمساواة والتكافل والتضامن بين جميع البشر، وتنتشر قيم الخير والفضيلة، وتدعو الناس كافة إلى سواء السبيل، وتسلك بهم الطرق المستقيمة التي توصلهم إلى الأمن والأمان، والسلام والاطمئنان، وإلى سكينه القلب وراحة الوجدان. والأمة الوسط شاهدة على الناس الشهادة التي تؤكد التكليف الإلهي: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. والشهادة بالحق هي أعلى الدرجات في سلم المسؤولية التي تتحملها الأمة الإسلامية وتنهض بأعبائها وتقوم بواجباتها. لقد اختار الله الأمة الإسلامية لتكون شاهدة على العالمين لأنها أمة الوسط، لا تميل إلى التفريط ولا إلى الإفراط. ولأن خيرية الأمة من وسطيتها يقول ﷺ في كتابه العزيز: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ **فالخيرية في هذا السياق هي الوسطية**، والله ﷻ وصف أمة الإسلام بالصفيتين معاً، كما وصفها بصفات أخرى في آيات كثيرة. ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً فقد خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج؛ كما قال ﷺ: ﴿هُوَ اجْتِنَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. لقد جعل الله الإسلام ديناً **وسطاً** وأمر المسلمين بأن يكونوا **خياراً عدولاً**، فهم خيار الأمم والوسط في الأمور كلها، بلا إفراط ولا تفريط، في شأن الدين والدنيا، وبلا غلو في دينهم، ولا تقصير منهم في واجباتهم، فهم ليسوا بالمدائين، ولا بالروحانيين، وإنما جمعوا حق الجسد وحق الروح، تمشياً مع الفطرة الإنسانية القائمة على أن الإنسان جسد وروح. ولعلنا بهذا الربط بين **(وسطية الإسلام)**، وبين **(خيرية الأمة الإسلامية)**، نصل إلى إدراك المفهوم العميق لهذا المبدأ السامي من مبادئ الإسلام؛ وهو مبدأ لم تكن تعرفه الأديان السماوية السابقة على الإسلام، وذلك مما يتطابق تطابقاً تاماً مع الدين الخاتم والرسالة الخاتمة. ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن على أي نحو من الأنحاء أن الوسطية تعني مستوى من مستويات التوفيق بين قواعد ومبادئ وقيم ومثل نزولاً على مقتضى من المقتضيات، أو أنها ضرب من (التقريب) بين ما تباين واختلف من التشريعات والأحكام. فهذا الفهم للوسطية يجافي حقيقتها ويتعارض مع خصوصيتها. وجملة القول أن **الوسطية هي تحقيق لمبدأ التوازن** الذي تقوم عليه سنة الله في خلقه. يقول ﷺ: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾؛ أي: بمقدار وبميزان. **فالوسطية هي المنهج الرباني، والنظام الكوني الإلهي، وسنة الله في خلقه، وهي تتسجم مع الفطرة الإنسانية**، ولذلك فالخير كله في الوسطية التي جاء بها الإسلام للأمة الإسلامية وللإنسانية جمعاء، في كل زمان ومكان. وقد بلغت الوسطية الإسلامية وتبلغ هذا المقام في حضارتنا لأنها بنفيتها الغلو الظالم والتطرف الباطل إنما تمثل الفطرة الإنسانية الطبيعية في براءتها، وفي بساطتها، وبداهتها، وعمقها، وصدق تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، إنها صبغة الله.

معالج الوَسْطِيَّة:

- **توحيد مصادر المعرفة:** وذلك بالجمع بين الوحي والعقل؛ فالوحي هو مصدر التشريع، والعقل له دور في فهم الوحي، كما أنه مصدر من مصادر المعرفة البشرية العامة في الحياة، كما أنه يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الحياة.
- **التلازم بين الظاهر والباطن:** فيجمع بين الاهتمام بأعمال الجوارح وأعمال القلوب، أو ما يعرف بفقهاء الظاهر وفقهاء الباطن.
- **الاتباع في الدين، والإبداع في أمور الدنيا.**
- **صحة النقل وصراحة العقل:** فيجمع بين منهجي مدرسة الرأي ومدرسة الأثر.
- **الجمع بين عمارة الحياة والسمو الروحي:** فيتولد عنه الاتزان بين متطلبات الجسد والروح، وتكون الدنيا مزرعة الآخرة، ويجمع بينهما وفق منهج الله.
- **الاجتهاد الصادر من أهله وفي محله:** فلا هو يفلقه كلية، ولا يفتح لكل أحد.
- **الثبات في الأهداف والمرونة في الوسائل.**
- **التوازن في التعامل مع التراث احتراماً بين التقدّيس والتبّخيس.**
- **التكامل في بناء الإنسان عقلاً وروحاً وجسداً ووجداناً بصورة متوازنة.**
- **قوة المضمون وجمال العرض والأسلوب:** فكم من الجواهر الحسان ضاعت لسوء عرضها، وكم من الناس غشّ الآخرين ببضاعته المزجاة لأنه أحسن عرضها.
- **الجمع بين التهذيب والتأديب، بين البناء الداخلي والسلطان الخارجي.**
- **تحرير المرأة من الوافد المستلب ومن التقليد الموروث؛** وذلك أن القضية اكتنفها طرفان: طرف يريد للمرأة الانسلاخ من القيم، وآخر يُكرهها على عادات وتقاليد لا علاقة لها بالشرع، والوسط أن يعيش كل من المرأة والرجل وفق منهج الله.

مَجَالَاتُ وَمَظَاهِرُ الوَسْطِيَّة:

- إن للوسطية في الإسلام مظاهر متعددة في مجالات متنوعة، فالوسطية الإسلامية كامنة في الاعتقاد والعبادات والشعائر والأخلاق والتشريع.
- ❖ **ففي مجال الاعتقاد** نجد الإسلام وسطاً بين الخرافيين الذين يصدقون بكل شيء ويؤمنون بغير برهان وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس، كما أنه وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله قطً وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأبقار وأهوا الأوثان والأحجار.
 - ❖ وهو وسط بين الذين يقصدون الأنبياء حتى رفعوهم إلى مرتبة الألوهية أو البنوة للإله وبين الذين كذبوهم واتهموهم وصبوا عليهم كؤوس العذاب، وهو وسط بين الذين يؤلّهون الإنسان وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية
 - ❖ **والوسطية في العقيدة موافقة للفطرة** باعتماد منهج القرآن والسنة والسلف الصالح في أمر العقيدة، والبعد عن اصطلاحات الجدليين، والاهتمام ببيان أثر العقيدة على النفوس، واعتماد طريقتي المعرفة النقلية والعقلية في العقيدة لتقوية الصلة بالله ﷻ.

- ❖ وفي مجال العبادات والشعائر نجد الإسلام وسطاً بين الأديان والنحل التي ألغت الجانب الرباني - جانب العبادة - من معناه كالبوذية التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده. وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج، كالرهبانية المسيحية. فالإسلام يطلب من المسلم أداء شعائر محدودة، ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله.
- ❖ وسطية الشعائر الدافعة للعمارة، فالتكاليف ليست كثيرة ولا شاقة، كما أنها لا تتعارض مع متطلبات الحياة من سعي لرزق وكدح لتأمين معاش.
- ❖ التوسط بين التمازج والتقليد: وما أحسن ما عبر عنه الإمام ابن القيم رحمه الله؛ حيث فرق بين التقليد والاتباع؛ فالاتباع عمل بقول الغير مع الحجة والدليل، أما التقليد فهو عمل بغير دليل.
- ❖ وسطية في الفتوى: بالمقارنة بين الكلي والجزئي، والموازنة بين المقاصد والفروع، والربط بين النصوص ومعتبرات المصالح في الفتاوى والآراء؛ فلا شطط ولا وكس.
- ❖ وفي مجال الأخلاق نجد الإسلام وسطاً بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان، فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل وفيه الشهوة، فيه غريزة الحيوان وروحانية الملاك.
- ❖ وسطية في التعامل مع الآخر: فيجعل الحوار أساساً للتعامل مع الآخر، ويعطيه الحرية في ممارسة شعائره، ولا يكون الخلاف دافعاً للعداء أو الاعتداء، بل العيش المشترك هو الجامع للتعاون، وأن المواطنة تقرب بين المختلفين، وتجعلهم يسعون للاشتراك في تحقيق المصالح المرجوة للجميع.
- ❖ والإسلام وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة واعتبروا الحياة الدنيا هي البداية والنهاية، وبين الذين رفضوا هذه الحياة وألغوا اعتبارها من وجودهم واعتبروها شرّاً تجب مقاومته والفرار منه، فحرموا على أنفسهم طيباتها وزينتها.
- ❖ وفي مجال التشريع نجد الإسلام وسطاً في التحليل والتجريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم وكثرت فيها المحرمات مما حرّمه إسرائيل على نفسه ومما حرّمه الله على اليهود جزاء بغيهم وظلمهم، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة.
- ❖ ومن المظاهر الفريدة في وسطية الإسلام أنه وازن بين الفردية والجماعية، بعكس التيارات الفلسفية والفكرية التي جاء بعضها ليطلق حرية الإنسان في كل شيء، والمذاهب الأخرى التي جاءت لتجعل خصوصيات الفرد مشاعاً للمجتمع كله.
- ❖ والإسلام وسط في التفاعل الحضاري: من خلال الفاعلية الإيجابية دون تقوقع أو استلاب، والاعتزاز بلا استعلاء، والتسامح بلا هوان، فالمسلمون أمة قائمة برأسها تتمتع بخصائصها الذاتية المتميزة، فهم كما وصفهم رسولهم الكريم ﷺ: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم)).

انتهاء المحاضرة الثانية

المحاضرة الثانية عالمية الإسلام والروابط البشرية

مفهوم العالمية:

لغة: العالمية نسبة إلى العالم. والعالم في اللغة: الخلق كله، وقيل: كل ما حواه بطن الفلك، وكل صنف من أصناف الخلق كعالم الحيوان وعالم النبات وغيرها.

من ناحية المفهوم فالعالمية أو: عالمية الإسلام تعني: أن رسالة الإسلام غير محدودة بعصر ولا بجيل ولا بمكان؛ فهي تتخاطب كل الأمم وكل الأجناس وكل الشعوب وكل الطبقات وهي هداية رب الناس لكل الناس ورحمة الله لكل عباد الله. عالمية الإسلام - معنى ولفظاً - نطق بها القرآن، وحينما نقول: ((شيء عالمي)) فمعناه أنه في العالم كله أو للعالم كله. والإسلام للعالمين؛ فالقرآن الكريم وصف الرسالة الإسلامية بأنها للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾؛ فإذا منتهى العالمية في خطابه. فالإسلام دين عالمي ارتضاه الله ﷻ لجميع الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو وحده الذي جاءت هدايته شاملة لجميع مناسط الحياة ولمعالجة كل القضايا، ويمكن تطبيق مبادئه في كل زمان ومكان. والتشريع الإسلامي جاء شاملاً وكاملاً وخالداً، لا يختص بزمان دون زمان، ولا بقطر دون غيره، ولا بخلق دون سواهم.

مُسندُ عالمية الإسلام:

يستند مفهوم عالمية الإسلام على نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية؛ كلها تجعل من المعلوم ضرورة أن الإسلام عالمي. وأنه عقيدة لا ينفرد بها شعب أو مجتمع بعينه، ولا يختص ببلد أو بلاد معينة، بل هو دين ذو قوانين تسري على الأفراد على اختلافهم من العنصر، والوطن، واللسان. ولا يفترض لنفوذه حاجزاً بين بني الإنسان، ولا يعترف بأية فواصل وتحديات جنسية أو إقليمية أو زمنية؛ فهو عام في المكان والزمان.

أولاً: أدلة عالمية الإسلام من القرآن الكريم:

إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم وجدنا دالة واضحة على عالمية الإسلام، وذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: نصوص صريحة؛ منها:

- النَّصُّ الْأَوَّلُ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.
 - النَّصُّ الثَّانِي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
 - النَّصُّ الثَّلَاثُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.
 - النَّصُّ الرَّابِعُ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.
 - النَّصُّ الْخَامِسُ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.
 - النَّصُّ السَّادِسُ: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.
 - النَّصُّ السَّابِعُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.
- إن هذه الآيات تدل على عالمية الرسالة المحمدية بشكل لا لبس ولا شك فيه.

الوجه الثاني: دعوة غير العرب:

جاء في القرآن الكريم دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمشركين إلى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، وبين لهم أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله سواه؛ حيث قال ﷺ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ بل تجاوزت رسالة نبينا محمد ﷺ اليهود والنصارى والبشرية بأكملها فلم تقتصر على عالم الإنس فقط بل تعدت ذلك إلى عالم الجن أيضاً. قال ﷺ: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ* قَالُوا يَا قَوْمِنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

الوجه الثالث: خطابات القرآن ونداءاته العامة:

إن القرآن الكريم كثيراً ما يوجه خطابه إلى الناس غير مقيدة بشيء، وهذا دليل واضح على أن خطابه وتوجيهاته تعم الناس كافة؛ ومن أمثلته: قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. وقوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وغيرها من الآيات كثير، فهو يخاطب الناس جميعاً بقوله: ((يا أيها الناس)) ولم يقل: ((يا أيها العرب)).

الوجه الرابع: التشريعات القرآنية عالمية:

يعتمد الإسلام في جميع أحكامه وتشريعاته، وما يخص الإنسان في معاشه ومعاده على طبيعة الإنسان التي يتساوى فيها جميع البشر. ولا يجد الباحث مهما أوتي من مقدرة علمية كبيرة فيما جاء به نبي الإسلام ﷺ أي طابع إقليمي، أو صبغة طائفية. وتلك آية واضحة على أن دعوته دعوة عالمية لا تتحيز إلى فئة معينة، ولا تنجرف إلى طائفة خاصة. فالعبادات والمعاملات والأخلاق، والنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والقضائي.... لا تجد في ثنايا أي منها أي تفكير طائفي أو نزعة إقليمية؛ فمثلاً: في المعاملات وما يترتب عليها من مقاضاة بين الناس يأمر الله ﷻ المسلم أينما وجد زماناً ومكاناً قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

الوجه الخامس: الإسلام ينبذ أي مقومات للتفرقة بين الناس:

إن أقوى دليل على أن الإسلام رسالة عالمية مكافحته للنزعات الإقليمية والطائفية، فالإسلام لا يفرق بين أبيض وأسود ولا بين جنس وآخر؛ والمقياس الوحيد للتفاضل في الإسلام هو التقوى. قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

ثانياً: أدلة عالمية الإسلام من السنة النبوية المطهرة:

- ❖ النص الأول: قوله ﷺ يخبر قومه: ((والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة)).
- ❖ النص الثاني: أن النبي ﷺ رحمة مهداة للناس كافة: ((يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة)).
- ❖ النص الثالث: اختص ﷺ من بين الأنبياء بأنه بعث للناس كافة: ((أعطيت خمسا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة)).
- ❖ أرسل ﷺ كتباً إلى عظماء زمانه يدعوهم فيها للإسلام، فبعث سفراءه وفي أيدي كل واحد منهم كتاباً خاصاً إلى قيصر الروم، وكسرى فارس، وعظيم القبط، وملك الحبشة...
- ❖ رسالته إلى كسرى ملك فارس: ((بسم الله الرحمن الرحيم... من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتبع الهدى، وأدعوك بدعاية الله؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم الجوس)).
- ❖ وهذا أيضاً ما كتبه إلى قيصر ملك الروم يقول فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم.. إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد فإني أدعوك بالإسلام: أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين؛ فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين)).

ثالثاً: مركزات عالمية الإسلام ودعائمها:

□ عالمية الدعوة:

إن أعظم الأدلة على عالمية الإسلام هو سرعة انتشاره ودخول الكثيرين فيه في العديد من المناطق اعتماداً على قوة الحجّة في خطاب الدعوة الإسلامية للفكر الإنساني. وأبرز أمثلة هذا الانتشار هو مبادئ ديننا الحنيف التي تبرز عالمية الدعوة تجسيداً لوحدة النوع الإنساني، وترسيخاً لمبدأ سواسية الناس في الخلقة، وتحقيقاً لإرادة الله ﷻ في جعلهم شعباً وقبائل ليتعارفوا ذلك التعارف الذي يقود إلى التعاون والتكامل والسعي إلى التفاضل بالتقوى.

□ وحدة النوع الإنساني:

يمتاز الإسلام بنظرته إلى وحدة النوع الإنساني؛ فالناس يشكلون وحدة إنسانية لا تمايز بين شعوبها وأفرادها في الأصل أو الطبيعة أو المصير، والناس جميعاً ينحدرون من أصل واحد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هذه النفس الواحدة تعود إلى ذكر أو أنثى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، ثم إن هذا الأصل الواحد يعود بعد ذلك إلى أب واحد، ينتسب إلى التراب. يقول ﷺ: ((يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أبابكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى)).

□ وحدة الطبيعة الإنسانية:

هذه الطبيعة أو الفطرة الواحدة موجودة في الناس جميعاً، وهي التي أكد عليها قول الله ﷻ: ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لِيُتَبَدَّلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. وقد منح الإسلام هوية جديدة للإنسان، وأحدث من أجل استيعاب هذه الهوية أمة جديدة لم يكن لها مثيل من بين الأمم. لم تقم هذه الأمة على أسس عرقية أو دينية أو لونية، وإنما قامت على أساس الاعتراف بالإنسان، فكان الإسلام دين الإنسان بحق، اعترف بنواذعه فأحكم لها ضوابطها. بل هو مواطن عالمي، صور الله دخائله ونواذعه تصويراً لم تبلغه فلسفات الأرض قديمها ولا حديثها، وبوَاه منزلة لم ترق به الأيديولوجيات مبلغها في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.

□ مهمة الأمة الإسلامية ووظيفتها:

الأمة الإسلامية أمة عالمية يجمعها أمر واحد ودين واحد، وتكاليفها واحدة، وهي تحمل أمانة الشهادة على الناس يوم القيامة، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. ولكن هذه الوحدة البشرية التي جاء بها الإسلام لم تمنح خصوصيات الشعوب، بل اعتبر الله ﷻ التمايز بين الناس لونا وعرقاً ولساناً آية من آياته ﷻ، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾.

□ عالمية الخطاب القرآني للفكر الإنساني:

إن الخطاب القرآني قد خاطب العقل الإنساني، ودعاه إلى التأمل والتدبر والنظر في آيات كثيرة. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾. والآيات القرآنية التي تدعو إلى النظر وإعمال الرأي والتأمل كثيرة، وقد تصل إلى مئات الآيات، وهي تحمل تربية عقلية ترقى بمستوى الفكر لمن تدبرها واتبع منهجها.

□ عالمية القيم:

والقيم الإسلامية عالمية في ذاتها، مرنة في تطبيقها لأنها استجابة للفطرة السوية، فقيم العدل والتعاون والمساواة وغيرها قيم عالمية في ذاتها، تواضع عليها الناس واصطلحوا جميعاً، واستحسنها العقل البشري في مختلف الأزمان. وهي واضحة في منهجها، مرنة في تطبيقها، تمتاز بالاعتدال والتوسط بين الحقوق والواجبات، وتلائم بين النزعة الفردية والمصلحة الاجتماعية، وتغذي الروح والجسد، وتطمح إلى المثال مع مراعاة الواقع وترسخ الثوابت وتسير التطور.

□ عالمية الحلول للمشاكل الإنسانية:

قدم الإسلام حلولاً لمختلف معضلات الحياة في عقيدة واضحة ومنهج بين لا لبس فيه، فداوى القلق، وعالج اليأس، وأذهب الغم، وجعل للحالات النفسية أدوية يلمسها من تفهم معاني القرآن الكريم وتفيماً لظلاله وعاش في رحابه، واقتبس من نور النبوة ما يضيء به مسيرة حياته.

□ عالمية النظام الاجتماعي:

أقام الإسلام نظاماً اجتماعياً رائداً، أساسه التكافل، وعماده نسيج اجتماعي متلاحم، فالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ تُخَوُّهُ تَعْلُو عَلَى رَابِطَةِ النَّسَبِ. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، هكذا فالمجتمع مفتوح لكل من أراد الانتماء إليه، لذلك ضم إليه مختلف الأجناس والألوان والطبقات.

مفهوم الروابط البشرية:

تمثل الروابط البشرية حالة التواصل الفطرية والمكتسبة بين الأفراد والجماعات، وما ينشأ عنها من حقوق وواجبات وعلاقات أدبية من تواد وتراحم وغيرها، هذه الروابط يقوم عليها بنيان المجتمعات وترتبط أفرادها بعضهم ببعض. وقد قرر الإسلام مجموعة من المبادئ التي تدعم هذه الروابط وتقويها، من أهمها: الكرامة الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، والمساواة بين الناس، والحرية، والوفاء بالعهود والمواثيق، والتعاون على البر، والتسامح مع الآخر. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. وقال ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. كما بنى الإسلام علاقة المجتمع الإسلامي بغيره على أساس السلم. قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ نَكَمٌ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. لأنه في بيئة السلم تقوى العلاقات الاجتماعية، وتنمو الصلات الحميمة بين الناس، ويشعرون بقيمتها وأثارها النافعة.

أنواع الروابط البشرية:

- ❖ **رابطة وحدة الأصل:** ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾. وقوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.
- ❖ **رابطة الأسرة والقرباة:** إن ارتباط الإنسان بأفراد أسرته أبا أو أما أو زوجة أو أولاداً أو أقارباً وأرحاماً هو ارتباط فطري يقره الإسلام، ويأمر به: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾، ﴿وَأَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا﴾. لكن بالرغم من ذلك فإنها لا تقدم على رابطة الإيمان التي يتعين أن تكون غايةً عليها لتواصل المؤمن وعلاقته بغيره، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ.... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.
- ❖ **رابطة الدين:** إن غاية الإسلام من رابطة الدين تحرير البشرية كلها من عبودية الأهواء، والارتفاع بها عن أضرار الحقد وشوائب العصبية؛ لتصوغ علاقاتهم الإنسانية صياغة فريدة، قوامها الدين الحنيف، وتحميها التناصح والتآزر، وجوهرها الإخلاص وسلامة النفس. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.
- ❖ **رابطة الميثاق:** لما كانت علاقة السلم هي الأصل في العلاقات الإنسانية، وهي ضمان تحقيق الأمن والسلامة للشعوب والأمم ودفع الظلم عن المستضعفين، فإن العهود التي تكون هذه الرابطة وتقويتها يجب احترامها إذا كانت قائمة على العدل والإنصاف واحترام الآخرين والاعتراف بحقوقهم. فقد كانت عهود النبي ﷺ عهداً عادلة، وحرَم الإسلام نقض العهد بعد إبرامه، ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وأول من يجب لهم الوفاء بالعهد أهل الذمة المقيمون بيننا، فلم يحق المواطنة. قال ﷺ: ((من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة)). وقال ﷺ: ((ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)).

انتهاء المحاضرة الثالثة

المحاضرة الرابعة

الاستشراق

معنى الاستشراق:

ما معنى هذه الكلمة؟ لو أرجعنا هذه الكلمة إلى أصلها لوجدناها مأخوذة من كلمة شرق ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف والسين والتاء، ومعناها طلب الشرق، وليس طلب الشرق سوى طلب علوم الشرق وآدابه ولغاته وأديانه. إن كلمة: الاستشراق كلمة مؤلدة وعصرية، ومأخوذة من الفعل: استشرق، ومن كلمة: شرق. وقد عرف صاحب معجم متن اللغة كلمتي الاستشراق والمستشرقين بقوله: الاستشراق طلب علوم الشرق ولغاتهم، ويسمى من يقوم بذلك: مستشرقاً، وجمعه مستشرقون، وما ينجزونه يسمى: استشراقاً. وفي اللغة الإنجليزية تُعرف بـ: أوريانتياليزم **Orientalism**، كما يعرف المستشرق بـ: أوريانتيالست **Orientalist**، وكلمة الاستشراق وكلمة المستشرق في اللغة الإنجليزية مأخوذة من كلمة: أوريانث **Orient** التي هي بمعنى الشرق، فحقيقة مصطلح كلمة الاستشراق أنها ترجمة لكلمة: أوريانتياليزم **Orientalism** التي أدرجت في قاموس الأكاديمية الفرنسية في القرن التاسع عشر، وبالتحديد في عام 1838م. أي: إن هذا المصطلح خرج قبل القرن التاسع عشر، وبرز وتحدث عنه عدد من الغربيين، ثم أدرج في ذلك القاموس في القرن التاسع عشر ميلادي. ويرى المستشرق ميكائيل أنجلوجويدي أن المستشرق الجدير بهذا اللقب هو الذي لا يقتصر على معرفة بعض اللغات التي تتحدث بها الأمم الشرقية وإدراك عاداتها فحسب، بل يجمع إلى ذلك الوقوف على القوى الروحية والفكرية والأدبية التي أثرت في الثقافة الإنسانية.

تاريخ الاستشراق:

لا يمكن تحديد اسم أول غربي اعتنى بالدراسات الشرقية، ولا في أي وقت، ولكن المتوقع أن رجال الكنيسة في أوروبا هم أول من قصد البلاد الشرقية، ولاسيما الأندلس إبان ازدهارها لدراسة العلوم الإسلامية وترجمة القرآن الكريم والعلوم الأخرى وبخاصة الفلسفة والطب والرياضيات. ومن أوائل هؤلاء الراهب الفرنسي: جربرت الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام 999م بعد عودته من الأندلس. وبطرس المحترم 1092 - 1156م، وجيراردي كريمون 1114 - 1187م. تلك كانت البداية، إلا أن المؤرخين يكادون يجمعون على أن الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة نشيطة بعد فترة عهد الإصلاح الديني على يد مارتن لوتر عام 1543.

مراحل الاستشراق

لقد مرّ الاستشراق بثلاث مراحل، وهي على النحو الآتي:

- مرحلة استكشاف كنه الإسلام وأسباب انتشاره، وحقيقة الفاتحين المسلمين وسر قوتهم العسكرية. وتعد هذه المرحلة مرحلة موضوعية تبحث عن الحقيقة.
- وهي مرحلة مشوبة بالعدوان، وتبحث عن العيوب والنقائص في العلوم الإسلامية وبنيّة المجتمع، وتوجه الصليبيين ضد مصالح المسلمين، وتعمل على إثارة الشبه حول قضايا الإسلام لإضعاف القناعة به.
- وهي مرحلة العدوان السافر. وقد ظهرت بعد فشل الحملات الصليبية التي كان آخرها الحملة الثامنة بقيادة لويس التاسع الذي لفت أنظار الغرب بعد أسره في المنصورة بمصر إلى الغزو الفكري حين قال: سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية لأن تدينهم بالإسلام يدفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس في سبيل الله لحماية دار الإسلام وصون الحرمات والأعراض، وأنه لا بد من سبيل آخر وهو تحويل الفكر الإسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري)). فكانت منعطفاً في تاريخ الاستشراق حوّلته إلى حرب العقيدة والفكر عن طريق التأليف والمؤتمرات والمجلات ووسائل النشر.

أهداف الاستشراق :

• **هدف علمي هدف موضوعي:** أقبل نذر قليل من المستشرقين على كتب التراث الإسلامي بهدف الإطلاع على حضارات الأمم وثقافتها ولغاتها ودراستها دراسة موضوعية وجادة رغبة في الوصول إلى الحقيقة العلمية، وقد كانوا أقل من غيرهم خطأً لأنهم فيما يظهر لم يعتمدوا التحريف والدس، فجاءت بحوثهم أقرب إلى الصواب والموضوعية من غيرهم، بل إن منهم من اهتدى إلى الإسلام مثل (اللورد هيدلي دانييل دينيه) وتسمى به: (ناصر الدين دينيه)، ومنهم من كان مُنصفاً في رأيه مثل (أرنست رينان) الذي أنكر ألوهية المسيح ﷺ وأثنى على كتب السيرة النبوية، و(توماس كارلايل) الذي أعجب بشخصية الرسول ﷺ، وعده من الأبطال. على أن هؤلاء غالباً ما يعتمدون على مواردهم المالية الخاصة بحيث يتمكنون من البحث المجرد عن الهوى أو التأثير الخارجي.

• **الهدف الثاني: هدف صليبي:** وتمثل فيما يأتي:

□ الانتصار للصليبية التي اتجهت حملاتها إلى البلاد الإسلامية ثم الاستمرار في القيام بدور الهجوم الفكري على عقيدة الأمة الإسلامية وفكرها بعد فشل هذه الحملات عسكرياً عن طريق تشويه مبادئ الإسلام وقيمه ومصادره وتاريخه.

□ **التهيئة للتبشير بالنصرانية** بين المسلمين ليقوم الاستشراق بوظيفة تجهيز المنصرين، وإحاطتهم بواقع العالم الإسلامي، وعبوب المجتمعات الإسلامية، وأماكن تجمعات النصارى المقيمين في البلاد الإسلامية، ومدى تأثيرهم ومساعدتهم لدوائر التنصير بالمعلومات.

□ **الحاجة إلى العلوم الإسلامية تجاوباً مع الضغط الفكري الذي تتعرض له الكنيسة** عن طريق النقد للنظريات والآراء الفلسفية والتاريخية التي كانت تتبناها الكنيسة وتُضفي عليها صفة القداسة؛ مما اضطرها إلى إعادة النظر في شروح الأناجيل لمحاولة تفهيمها على أساس التطورات العلمية الجديدة، ولاسيما بعد حركة الإصلاح الديني التي قادها (مارتن لوتر)، ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية وهذه أدت إلى الدراسات العربية لأن هذه الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى، ومع مرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية.

• **الهدف الثالث: هدف دفاعي:**

حرص عليه رجال الكنيسة عن طريق الكتابة باللغات المحلية في أوروبا لتشويه صورة الإسلام ووصفه بالوحشية والعداء للشعوب الأخرى، والشدة في الأحكام حتى لا يفتخر أبناء أوروبا بالحضارة الإسلامية ولاسيما في عهد ازدهار الحضارة العثمانية وامتداد فتوحاتها إلى قلب أوروبا مما كان محل إعجاب كثير من الأوروبيين وانبهارهم متكررين بذلك للأهداف العلمية.

وسائل الاستشراق وإنشطة المستشرقين :

- **التأليف:** اتجه عدد كبير من المستشرقين إلى التأليف في موضوعات مختلفة عن الإسلام وعقيدته ورسوله ﷺ وقرآنه والسنة النبوية، وتعمد غالب هؤلاء تشويه صورة الإسلام وإثارة الشبهات حوله؛ ومن هؤلاء:
- ✓ **أربري:** وهو مستشرق إنجليزي معروف بالتعصب ضد الإسلام؛ ومن كتبه: الإسلام اليوم صدر عام 1943م.
- ✓ **التصوف** صدر عام 1950م. ترجمة القرآن صدر عام 1950م.
- ✓ **جب:** وهو مستشرق إنجليزي معاد للإسلام، تتسم كتبه بالعمق والخطورة ومنها: طريق الإسلام، الاتجاهات الحديثة في الإسلام صدر عام 1947م. المذهب المحمدي صدر عام 1947م.
- ✓ **فينسينك:** عدو لدود للإسلام يدعي أن الرسول ﷺ ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته، ومن كتبه عقيدة الإسلام صدر عام 1932م.

- **الجمعيات والمجلات:** أنشئ في أوروبا عدد من الجمعيات التي تخدم الاستشراق، وتسعى إلى تحقيق أهدافه ابتداءً من عام 1787م؛ حيث أنشئت جمعية المستشرقين في فرنسا، وألحق بها أخرى عام 1820م، وأصدرت المجلة الآسيوية، وفي لندن تآلفت جمعية تحت رعاية الملك عام 1823م باسم الجمعية الآسيوية الملكية، وفي أمريكا عام 1842م نشأت الجمعية الشرقية الأمريكية، وصدرت عدة مجلات منها: مجلة الدراسات الشرقية وكانت تصدر في ولاية أوهايو، ومجلة شؤون الشرق الأوسط وهي ذات طابع سياسي.
- **الدوائر المعرفية:** ومن أشهرها: دائرة المعارف الإسلامية التي كانت تصدر بعدة لغات، وقد استنفر المستشرقون كل قواهم وسخروا كل أقلامهم من أجل إصدار هذه الموسوعة التي تعتمد على الخلط والتحريف والعداوة السافرة لفكر الإسلام.
- إلى غير ذلك من المجالات؛ مثل محاولتهم الدخول في الجامعات العلمية العربية كمجمع اللغة العربية بالقاهرة وفي دمشق، كما حاولوا التأثير على مبادئ التربية الإسلامية واستبدال المبادئ الغربية بها.

آثار الاستشراق على ثقافة المسلمين :

- أدى الاستشراق إلى إضعاف عقيدة المسلمين.
- وتشويه صورة الإسلام لدى أبنائه.
- وإشعارهم بتناقض دينهم وقصوره في مواجهة الجديد والمتطور في واقع الحياة، ومقارنة ذلك بالفكر الغربي الذي أظهره المستشرقون في صورة الفكر المتكامل والمتلائم مع الحياة العصرية.
- مما أدى إلى انهزام نفسية كثير من المسلمين أمام التيار الجارف من كتابات المستشرقين التي تأسد الفكر المنحرف، وتثير الشبهة حول الإسلام.

انتهاء المحاضرة الرابعة

المحاضرة الخامسة

التنصير

تعريف التنصير:

في اللغة: كلمة التنصير مأخوذة من نصره أي: أدخله في النصرانية، وجعله نصرانياً، ومنه قول الرسول ﷺ: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه)). وقيل: سميت بالنصرانية نسبة إلى مدينة الناصرة بفلسطين، وقد موّه المستشرقون لما سَمُوا التنصير بالتبشير لإخفاء غايتهم منه، وهي الدعوة إلى النصرانية؛ إذ تسميته بالتبشير مأخوذة من البشارة، وهي الخبر الذي يفيد السرور، ويظهر أثره الحسن على بشرة الإنسان.

في الاصطلاح: هي الجهد المبذول بصفة فردية أو جماعية في دعوة الناس إلى النصرانية، ويطلق أيضاً على ما تقوم به المنظمات الدينية من تعليم الدين النصراني ونشره.

نشأة التنصير:

يعود تاريخ التنصير كدعوة إلى مبتدأ دعوة المسيح ﷺ إلى توحيد الله ﷻ وإلى إصلاح ما أفسده بنو إسرائيل في شريعة موسى ﷺ. قال ﷺ: ﴿وَقَفِينَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعَيْسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

إلا أن النصارى مع تقادم العهد بالمسيح ﷺ، وابتعادهم عن تعاليمه انحرفوا عن التوحيد، وبدلوا الشريعة التي أمروا باتباعها، وأعادوا كتابة الإنجيل بما يتوافق مع أهوائهم، ونسبوا ما ادعوه من تحريف في التوحيد وتبديل في الشريعة إلى الله زوراً وبهتاناً. قال ﷺ: ﴿قَوْلٍ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلٍ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾. إلا أن دعوة المسلمين إلى النصرانية لم تعرف بالتأثير والنشاط المدعومين إلا بعد فشل الحملات الصليبية التي استمرت من سنة من الحروب الدامية، تمكن النصارى خلالها من الهيمنة على بيت المقدس. ثم استردها المسلمون من أيديهم في معركة حطين عام (583هـ 1188م) بقيادة القائد صلاح الدين الأيوبي. وما تبع هذه المعركة من هزائم شنيعة للنصارى دفعهم إلى إيقاف هذه الحملات، واتباع مسلك آخر في مواجهة المسلمين، هو الغزو الفكري. ويُذكر أن القسيس (فرانس) من أوائل النصارى الذين وصلوا إلى العالم الإسلامي، فقد وصل إلى مصر عام ((616هـ 1219م)). كما أرسل القديس (فرانسيس) عدداً من المنصرين إلى مراکش بالمغرب. كما قدم (ريمون لول) الراهب الأسباني عام (693 هـ 1294م) إلى البابا خطة لتنصير المسلمين بعد أن أتقن اللغة العربية في مدارس الأندلس بكل مشقة، وجال في بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين. وغيرهم من القساوسة الذين اتجهوا إلى بلدان العالم الإسلامي لتنصير أبناء المسلمين. وبرز التنصير بعد ذلك نشاطاً لكنائس حينما أرسلت عدداً من إرسالياتها المتعددة إلى الهند وجزائر الهند والشرق العربي لتنصير المسلمين. ففي عام (1209هـ 1795م) بدأ نشاط جمعية التنصير المعمدانية في بنغلاديش، وفي عام (1258هـ 1843م) أسست الجمعية التنصيرية (أخوات القديس يوسف) مدرسة للبنات بثونس. وفي عام (1285هـ 1868م) أسست (جمعية الأباء البيض للسيدة العذراء) في شمال أفريقيا لتنصير المسلمين. وفي عام (1309هـ 1892م) وصل القس (صموئيل زويمر) إلى البحرين ليتخذها مركزاً للتنصير في منطقة الخليج العربي. وهكذا تتابعت الإرساليات وتلاحقت، وشملت بقاعاً واسعة في البلدان الإسلامية.

بواعث التنصير:

أولاً: الباعث الديني: يستند المنصرون في دعوتهم الناس إلى النصرانية على تفويض إلهي - بزعمهم - ورد في إنجيل (متى) بتنصير الناس ينسب إلى المسيح ﷺ في قوله للحواريين: ((أذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس)). وواقع حال التنصير أنه تحول من دعوة لإنقاذ المسلم من الضلال إلى وسيلة إفساد تعمل إلى إخراج المسلم من دينه ليكون ملحداً. يقول (زويمر) في مؤتمر القدس عام 1935م: ((مهمة التنصير التي تدبّكُم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية؛ فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله)).

ثانياً: الحقد الصليبي: منذ انتشر الإسلام وظهر على الدين كله وأهل الكتاب يضررون العداوة للإسلام وأهله، وزاد الأمر كراهية بعد اتساع نفوذ الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيطرتها على الشام ومصر التي ينظر إليها الصليبيون على أنها تابعة لهم على أساس أنها كانت جزءاً من ممالك الدولة الرومانية، وامتدادها في عهد العثمانيين إلى شرق أوروبا وجنوبها. وهو ما عبر عنه المنصر الألماني (بيكر) في قوله: ((إن الإسلام لما انبسط في العصور الوسطى أقام سداً في وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها)). وزاد حقد النصارى بعد ارتدادهم على أديارهم مهزومين إثر الحروب الصليبية التي دامت قرنين، مما ولد في نفوسهم آلاماً صعب عليهم نسيانها ففرغوها في مخططات التنصير التي تسعى إلى تحويل المسلمين عن دينهم ولو إلى الإلحاد وتعمل على بسط النفوذ الغربي عن طريق تلاميذ التنصير والمُعتَرِّين بحضارة الغرب، وهذا ما أبدته أسننتهم؛ كما قال ﷺ: ﴿قَدْ بَدَأَ الْبِغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾. يقول المنصر (جون تاكلي): يجب استخدام أمضى سلاح ضد الإسلام لنقضي عليه تماماً. ويقول المنصر (روبرت ماكس): لن تتوقف جهودنا وسعيانا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة، ويقام قداس الأحد في المدينة...

ثالثاً: الباعث السياسي: حقق الغرب عن طريق التنصير نفوذاً سياسياً في العالم الإسلامي، بدأ مع الاستعمار حين اعتمدت سياسة الدول الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين، فكثيراً ما كان المنصرون يتولون مناصب سياسية وعسكرية ويتسترون بالتنصير، ويعملون على حض حكوماتهم على بث المبشرين في العالم. ساهم التنصير والاستشراق في تقديم النصح والمعلومات للدول الاستعمارية الغربية التي رأت في احتلال الدول الإسلامية ما يحقق أهدافها التوسعية التي تؤمن حاجتها من الأيدي العاملة للعمل في المصانع وبناء البنية التحتية، ومن المواد الخام المعدنية والزراعية التي تتطلبها مصانعها الحديثة، ومن الأسواق لمنتجاتها الكثيرة. ومن ثم صارت الحكومات الاستعمارية مهيئاً للمنصرين في الدول الإسلامية التي خضعت لسيطرتهم عرفاناً بجميلهم، كما وجد المنصرون في هذا العون ما يحقق هدفهم وهو إعادة مملكة المسيح، كما يظهر من قول المنصرين اليسوعيين لما مارسوا نشاطهم في ظل الحكومات الاستعمارية: ((نحن ورثة الصليبيين رجعنا تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التنصيري، ولنعيد مملكة المسيح)). الأمر الآخر أن التنصير كان عاملاً مهماً في كسر كل دعوة إلى الوحدة الإسلامية التي يحن إليها المسلمون بعد سقوط الخلافة العثمانية. لقد أبرز (لورنس براون) هذا الموقف في صورة واضحة حين قال: ((إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أو أمكن أن يصبحوا نعمة أيضاً، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير)).

وسائل التنصير:

أولاً: التنصير المباشر: يقوم به فرد أو مجموعة من المبشرين المتفرغين لهذه الوظيفة ممن توظفهم الكنيسة وعَاضاً لنشر النصرانية، ويعتمد هذا النوع على الإقناع الفردي والوعظ العام في الكنائس أو الأماكن العامة لتعريف الناس بالمسيح وحياته وتعاليمه.

ثانياً: وسائل التنصير المساعدة: يُقصد بها التنصير عن طريق مجالي التعليم والعلاج والخدمة الاجتماعية والإعلام. أما وسيلة التعليم فتُعد من أنجح الوسائل لنشر النصرانية، ويتم ذلك عن طريق إنشاء مدارس للمراحل الأولى، والتي غالباً ما يدرس فيها المنهج النصراني والفكر العلماني، ويتعلم فيها أبناء عليّة القوم الذين يتوقع لهم التأثير في واقع مجتمعاتهم مستقبلاً، كما امتد نشاط المبشرين إلى التعليم العالي فافتتحت كليات تنصيرية. أما العلاج فهو الوسيلة الفعالة في المجتمعات الإسلامية لإقناع الناس بحاجة المجتمع إلى المنصرين لاسيما في المجتمعات الفقيرة المتخلفة التي تمارس فيها التعاويذ والتمايم كوسيلتي علاج. ولإيجاد روح الاعتراف بالجميل والعرفان للمعاملة الطيبة التي قدمت لهم، وحقق المبشرون منها كسر حدة التحامل عليهم وبناء قناة اتصال بهم.

آثار التنصير على ثقافة المسلمين:

- ❖ إخراج المسلمين من دينهم وإدخالهم في النصرانية كما حدث في تنصير بعض المناطق الإسلامية في إفريقيا وشرق آسيا. يوضح ذلك المنصر (رايد) حيث يقول: (إنني أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح، وإن كان النصراني لم يحققوا في سبيل تحقيق هذا الهدف نجاحاً كبيراً يتناسب مع الجهد المبذول إلا أنهم نجحوا في إحداث ردة بين المسلمين وإضعاف ولاء كثير منهم لدينهم، وتلك كانت غاية أخرى للمنصرين)).
- ❖ ضعف قوة المسلمين بإضعاف صلتهم بدينهم؛ فإن المنصرين أدركوا أن تمسك المسلمين بدينهم هو سر قوتهم.
- ❖ يقول المنصر (جاردنر): ((إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا، كما أن إسلام العائق الأول أمام تقدم انتشار النصرانية في دول العالم)).
- ❖ تفريق كلمة المسلمين والجيلولة دون وحدتهم وتخلصهم من سيطرة الغرب عليهم. يعبر عن هذا المنصر القس (سيمون) في قوله: ((إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد على التملص من السيطرة الأوروبية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة الحركة؛ من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية)).
- ❖ تفريب المسلمين في بلادهم عن طريق التعليم الذي اعتنى به التنصير لإيجاد أجيال تنتمي إلى الإسلام اسماً، وتحمل فكر الغرب حقيقة، وتمارس عاداته بعيداً عن تعاليم الإسلام وأحكامه. يقول (تاكلي): ((يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني لأن كثيراً من المسلمين قد زرع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب الغربية، وتعلموا اللغات الأجنبية)).

انتهاء المجازرة الخامسة

المحاضرة السادسة

الاستعمار

تعريف الاستعمار:

في اللغة: فرض السيادة على الأرض واستغلالها. **وفي الاصطلاح:** سيطرة دول الغرب على دول الشرق أي: العالم الإسلامي بقصد الاستيلاء على خيراته والسيادة على أهله وتوجيه كل ذلك لخدمة مصالحهم.

تاريخ الاستعمار:

كان أول من نادى بالحروب الصليبية على المسلمين (البابا أوربان الثاني) الذي تولى كرسي البابوية سنة 1088م، ومهد لهذه الحروب، وحشد لها الجموع من رجال الدين والساسة والعامّة، وأجج نارها في أصقاع أوروبا. وقد امتدت ما يقرب من تسعة قرون منذ الحملة الصليبية الأولى على العالم الإسلامي التي قادها بطرس الراهب سنة (491هـ - 1097م) وتمكن من السيطرة على الأراضي المقدسة في بلاد الشام، إلى الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع سنة 652 - 1249م. الذي أسر في معركة المنصورة سنة 1250م. ونهه إلى عدم جدوى الصدام العسكري مع المسلمين في ذلك الحين ونادى بالغزو الفكري لعقيدتهم وأخلاقهم وفكرهم. وقد استطاعت الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين في المشرق استنزاف جميع القوى البشرية والمادية في منطقة الشام ومصر، وفرض سيادتها على أجزاء من البلاد الإسلامية منها بيت المقدس وما حوله من الأراضي المباركة. يقول (شتر): ((جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض المقدسة من أيدي المسلمين المتعصبين، فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك وأروع العهود في العصور الوسطى كلها، ولكن ذلك الجهد قد خاب وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود عتيقة من التعصب الإسلامي)). وباءت الحملات الصليبية بالفشل، وارتدت على أعقابها خائبة، ولم تلبث الأمة أن تولت قيادتها الدولة العثمانية التي حفظت العالم الإسلامي من أخطار محاولة الغزو العسكري الغربي؛ بل عملت على توسيع رقعة البلاد الإسلامية ونشر الإسلام في أوروبا، حتى تمكنت من فتح القسطنطينية قلعة الدولة الرومانية الشرقية وقد سيطرت الدول الأوروبية على العالم الإسلامي على النحو الآتي:

- 1- **بريطانيا:** استعمرت ماليزيا وشبه القارة الهندية وساحل الخليج العربي واليمن ومصر والسودان وجزءاً من الصومال وأريتريا وقبرص ونيجيريا، وبعد الحرب العالمية الأولى أضافت إليها العراق والأردن وفلسطين.
 - 2- **فرنسا:** استعمرت مالي وتشاد والسنغال وموريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وجيبوتي، وبعد الحرب العالمية الأولى أضافت إليها سوريا ولبنان.
 - 3- **إيطاليا:** استعمرت ليبيا وجزءاً من الصومال.
 - 4- **روسيا:** استعمرت تركستان والأراضي الإسلامية في الأورال وحوض نهر الفولجة وشبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز إلى شمال إيران.
 - 5- **إسبانيا:** استعمرت الرّيف المغربي والصحراء المغربية. 6- **هولندا:** استعمرت أندونيسيا.
- وقد استخدمت الدول الاستعمارية كل ما لديها من وسائل القوة لمواجهة كل من يقاومها، ويعيق سيطرتها على العالم الإسلامي، وتحقيقها أهدافها الصليبية التي صرح بها عدد من قادة الدول الاستعمارية. منهم (النبّي القائد العسكري الإنجليزي) الذي قال في خطبته لما دخل القدس: (الآن انتهت الحروب الصليبية). وعندما دخل الجنرال (غورو) القائد العسكري الفرنسي) دمشق طلب أن يدفنه على قبر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله؛ فلما وقف على قبره ركله بقدمه قائلاً: (ها قد عدنا يا صلاح الدين).

أهداف الاستعمار :

- **هدف صليبي (هدف للكنيسة):** يحقق ما عجزت عن تحقيقه الحملات الصليبية إبان القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وهو السيطرة على البلاد الإسلامية وانتزاع بيت المقدس من المسلمين والذي كانت الدول الغربية في القرن التاسع عشر الميلادي تسعى إليه.
 - **هدف سياسي (يتعلق بالدول والحكام أنفسهم):** نشأ عن التنافس بين الدول الغربية في السيطرة على المواقع الاستراتيجية ومناطق الثروات المعدنية والزراعية وبسط النفوذ على أكبر قدر من المساحة، ونظراً لما تتمتع به البلاد الإسلامية من موقع استراتيجي يقع في وسط العالم ويتصل بالقارات الثلاث.
 - **هدف اقتصادي:** نتج عن الثورة الصناعية التي نشأت في أوروبا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي، وفي القرن التاسع عشر الميلادي زاد الإنتاج زيادة هائلة فاحتاج أصحاب المصانع إلى المواد الخام والقوى العاملة كما احتاجوا إلى الأسواق لتصريف منتجاتهم، ولم تتمكن الدول الأوروبية من سد تلك الحاجات كلياً مما دفعها إلى الاستعمار للحصول على المواد الخام وفتح أسواق جديدة أمام منتجات صناعتها، فكان العالم الإسلامي هدفاً.
 - **هدف عدائي:** يعود إلى ما انطوت عليه قلوب النصارى من حسد وبغض للأمة الإسلامية التي ناصبها العداء منذ نشأتها، وعملوا على القضاء عليها بشتى الوسائل العسكرية والفكرية عن طريق الحملات الصليبية ثم الاستشراق والتنصير، ويعد الاستعمار حلقة أخرى في سلسلة حلقات العداء المتتالية.
- قال ﷺ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَمُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. لذا فإن الدول الاستعمارية سعت إلى مسح الإسلام من قلوب المسلمين والاستخفاف به وبعلمائه بوسائل مباشرة وغير مباشرة، وتغريب الأمة وتعطيل أحكام الإسلام ومحاصرة التعليم الديني ومحاربة كل المظاهر المتصلة بالإسلام، وإخماد كل الحركات الإصلاحية الداعية إلى الوحدة الإسلامية أو إلى العودة إلى الإسلام من جديد.

آثار الاستعمار الثقافية :

- **تغريب العالم الإسلامي:** فقد كان الغرب يسعى في مستعمراته، وفي مناطق نفوذه إلى نشر ثقافته بين المسلمين، وحملهم عليها.
- **إحياء النعرات القومية:** كالتورانية في تركيا والفرعونية في مصر والبابلية في العراق والآشورية والفينيقية في الشام، والبربرية في شمال إفريقية، والقومية العربية وتشجيعها لتكون بديلاً عن الفكر الإسلامي وإشغال الأمة بتمجيدها والافتخار بها، مع تجهيل المسلمين بتاريخهم الإسلامي المجيد.
- **زرع أسباب الفتنة والخلاف بين المسلمين** مثل مشاكل الحدود بين البلاد الإسلامية.
- **حماية الإرساليات التنصيرية** ودعمها للقيام بعملها وتحقيق أهدافها وتبرير إفسادها لعقائد المسلمين.

انتهاء المحاضرة السادسة

المحاضرة السابعة

التغريب

تعريف التغريب:

في اللغة: مصدر من غَرَب، يقال: غرب في الأرض؛ أي: سافر سافراً بعيداً، أو اتجه نحو الغرب.
في الاصطلاح: إعادة صياغة ثقافة العالم الإسلامي وفق ثقافة الغرب وحضارته. والتغريب يعد تياراً فكرياً ذا أبعاد سياسية واجتماعية وفنية، يهدف إلى إلغاء شخصية المسلمين الخاصة، وجعلهم أسرى الثقافة الغربية.

تاريخ التغريب:

ظهرت بدايات التأثير بمظاهر الحضارة الغربية في أواخر عهد الخلافة العثمانية عندما أرادت تطوير جيشها على وفق النظام الأوروبي، فقد أمر السلطان محمود الثاني عام 1826م العسكريين بلبس الزي العسكري الأوروبي. كما استقدم السلطان سليم الثالث المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وانجلترا وذلك لإنشاء المدارس الحربية والبحرية. واتخذ التغريب اتجاهاً آخر لنشر أفكاره وحمل الناس على تبني مفاهيمه عن طريق إنشاء مدارس الإرساليات التنصيرية ببلبنان ومصر التي كانت مفتوحة لأبناء المسلمين للتعلم وفق منهج التعليم الغربي. وكان نصارى الشام من أوائل من اتصل بالإرساليات التنصيرية، وسارع إلى تلقي الثقافة الفرنسية، كما أظهروا إعجابهم بالغرب، ودعوا إلى السير على طريقه. وقد ظهر ذلك جلياً في مقالاتهم التي كتبوها في الصحف التي أسسوها وعملوا فيها مثل صحيفة الجنان والمقتطف في بيروت، وجريدة المقطم والأهرام التي أسسوها في القاهرة. وعن طريق التشجيع على البعثات إلى أوروبا؛ فقد قام محمد علي والي مصر بابتعاث عدد من خريجي الأزهر إلى أوروبا من أجل التخصص، وتوسع في ذلك الخديوي إسماعيل بهدف جعل مصر قطعة من أوروبا. وقد أثر التيار التغريبي في فكر كثير من القادة والمفكرين، وتمكن من إعادة صياغة مفاهيمهم وفق الثقافة الغربية حتى ظن هؤلاء أن التقدم الذي حققه الغرب عائد إلى تصوراتهم ومفاهيمهم وأسلوب حياته البعيدة عن الدين مما دفعهم إلى الدعوة إلى اللحاق بالحضارة الغربية والاندماج في ثقافة المجتمع الغربي.

أهداف التغريب:

نقض عرى الإسلام وإبعاد المسلم عن دينه: لقد كان الهدف إضعاف شأن الإسلام في نفوس المسلمين، وإزاحته من قلوبهم وحياتهم، وقطع صلته بمصادره ولاسيما القرآن الكريم. يقول (الماريشال بيار ليوتي) قائد جيش الاحتلال الفرنسي في المغرب: (يجب أن نبعث سكان المغرب عن كل ما يطلق عليه لفظ الإسلام، ولا نترك القرآن يثبت في أذهانهم). وكذلك تجهيل المسلمين باللغة العربية حتى تنقطع صلته بالقرآن الكريم والسنة النبوية ومؤلفات السلف من علماء المسلمين. يقول الحاكم الفرنسي للجزائر في ذكرى مرور مائة على الاحتلال: (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون هذا القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من أفواههم). ويقول (وليم جيفورد بالكراف): (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا أن نري العربي حينئذ يتدرج في سبل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه).

تفتيت الوحدة الإسلامية: سعى الغرب إلى إيقاظ النعرة العنصرية وصرف المجتمعات الإسلامية عن الإسلام بصفته عاملاً لوحدهم، وكان المدعو (توماس إدوارد لورنس براون المسمى: بلورنس العرب) يقول: (أخذت طول الطريق أفكر... وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني؟ وبمعنى أوضح، هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سورياً مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني؟) وكما يصرح (لورنس العرب) في قوله: (أهدافنا الرئيسية تفتيت الوحدة الإسلامية...).

إقصاء أنظمة الحكم والإدارة والتعليم المستمدة من الإسلام، وإحلال الأنظمة الغربية مكانها: ولتحقيق هذا الهدف تم تسليم مواقع التأثير المتمثلة بالحكم والإدارة وسدة التعليم في البلاد الإسلامية للمنبرين من المسلمين بالحضارة الغربية، المتخلفين بأخلاق أوروبا لأنهم أقدر على إحداث تغيير يتفق مع الثقافة الغربية. يقول (كرومر) المندوب البريطاني في مصر: (إن المسلم غير المتخلف بأخلاق أوروبية لا يصلح لحكم مصر). كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربين تربية أوروبية؛ ... إن المتفرجين من المصريين ... أصلح الناس للتعاون مع الإدارة الانجليزية).

إعادة بناء فكر المسلمين على أساس تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، ومحاكمة الفكر الإسلامي وفق هذه التصورات والمقاييس بهدف سيادة الحضارة الغربية. وقد أثمرت هذه المحاولة بكثرة التناول للقضايا والمفاهيم، وتنوع الأساليب حتى أحدثت انقلاباً فكرياً في تصورات الطلائع المثقفة من المسلمين ومفاهيمها. وتمكنت من عزلهم أو تحييدهم عن مواجهة هذه المحاولة؛ بل انجرف بعضهم مع التيار التغريبي فصاروا يهاجمون دينهم، ويسخرون منه. وكان هذا إيذاناً بقيام مدرسة فكرية جديدة تنطلق مما جاءت به الحضارة الغربية من أفكار وفلسفات ونظريات في ميادين الحياة.

صبغ حياة المسلمين في جميع جوانبها ومرافقتها بصبغة الحضارة الغربية، وتغيير عاداتهم بما يتوافق مع عادات المجتمعات الغربية، ولا بأس ببقاء الانتماء إلى الإسلام اسماً في حين يستسلم الواقع في كل مظاهره للفكر الغربي مما أدى إلى إيجاد مجتمعات إسلامية تتعامل وفق العادات والتقاليد الغربية. وكان من مظاهر ذلك: الاختلاط بين الجنسين وإلغاء الحجاب عن المرأة، والتخلي بالأداب الغربية في التحية والطعام واللباس ونحو ذلك.

وسائل التغريب:

الوسائل المباشرة: تم تكريس التغريب بشكل مباشر بعد إخضاع غالب البلدان الإسلامية لسلطان الحكم العسكري والسياسي والثقافي الغربي، والقضاء على هويتها الذاتية وتوجيهها الوجهة الغربية. أرخى الاحتلال للمنصرين العنان، فصاروا يسرحون ويمرحون، ويستخدمون كل الوسائل لتنصير المسلمين أو تحقيق ردتهم، ومكنهم من بناء الكنائس والمدارس والمستشفيات لتحقيق أغراضهم. كما دعم المستشرقين وسهل مهمتهم لجمع المعلومات عن الشرق الإسلامي ونشر مطبوعاتهم المغرضة بهدف تشويه صورة الإسلام في نفوس أهله. كما أسس المدارس المدنية التي تجرد الفلسفة الغربية وتجهل المسلمين بدينهم ولغتهم وتاريخهم، وأفسح المجال للأقليات غير المسلمة لتعمل ضد وحدة المسلمين. وأدخل القوانين الأوروبية وأقصى العمل بالشريعة في المحاكم. وشجع على نشر الإباحية والعادات والموضات الغربية. وغير ذلك مما قام به الاحتلال الأوروبي لتغريب الشعوب الإسلامية ولم يزل العالم الإسلامي يعاني من آثارها المدمرة لهويته وثقافته الإسلامية.

الوسائل غير المباشرة:

أ- **تقديم الخبرة والمشورة:** اتخذ من تقديم الخبرة والمشورة غطاءاً للتدخل في السياسات والأوضاع الداخلية للعالم الإسلامي عن طريق السفراء والقناصل والخبراء الذين يعدون طلائعاً للتغريب في كثير من البلدان الإسلامية كما يظهر من عملهم، وتحديث مؤسسات الدولة على النمط الغربي.

ب- **تجهيل المسلمين بلغتهم ونشر اللغات الغربية بينهم:** اللغة العربية الفصحى هي لغة القرآن والسنة النبوية والتراث الإسلامي ولغة الصلاة وشعائر الإسلام، لها أثر كبير في توحيد المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلدانهم لذلك كانت غرضاً مباشراً للتغريب من أجل تجهيل المسلمين بتعاليم دينهم وصرْفهم عنها. فقد تم محاصرة تعليم اللغة العربية الفصحى في حلقات المساجد ومدارس التعليم الديني وتقليص تدريسيها في المدارس المدنية والدعوة إلى الاستغناء عنها باللغة العامية التي تمثل مجموعة من لهجات تختلف من بلد إلى آخر. وكذلك عمد أصحاب التيار التغريبي إلى التوسع في تعليم اللغات الأوروبية لتكون نافذة لتسرب الثقافة الغربية إلى عقولهم وحياتهم.

ج- **إنشاء المدارس المدنية:** اتخذ التغريب من التعليم في البلدان الإسلامية وسيلة في صرف الناشئة عن انتمائهم الأصيل، وتزويدهم بالأفكار والثقافة الغربية، وتوجيههم نحو الولاء للحضارة الغربية. يقول اللورد (لويد) المندوب البريطاني على مصر في خطبته التي ألقاها في كلية فكتوريا بالإسكندرية عام (1345هـ - 1926م): (ليس من وسيلة لتوطيد الرابطة بين البريطانيين والمصريين أفعال من كلية تعلم الشبان من مختلف الأجناس المبادئ البريطانية العليا ... فيصيروا قادرين أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا عليها ... وينمو فيهم من الشعور الانجليزي ما يكون كافياً لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرقي والغربي). ولخطورة هذه الوسيلة وقوة تأثيرها سارع الاحتلال إلى استثمار التعليم ورسم سياسته نحو تحقيق أهداف التغريب.

د- **تحرير المرأة:** إن المرأة نظراً لمكانتها وتأثيرها القوي في الحفاظ على ثقافة المجتمع الإسلامي ونقل مكوناتها إلى الناشئة وتربيتها على مبادئ الإسلام وقيمه فقد كانت هدفاً لدعاة التغريب الذين دعوا إلى سلخ المرأة عن دينها ودعوا إلى محاكاة المرأة الغربية وممارستها في العادات والتقاليد باسم تحرير المرأة، وطالبوها بخلع حجابها ومخالطة الرجال الأجانب في ميادين التعليم والعمل، كما دعوا إلى إباحتها بالزواج ومنع تعدد الزوجات وتقييد الطلاق وإيقاعه في المحاكم، وكان النصراني المتعصب (فهمي مرقص) أول من طرح هذه المطالب، وذلك عام 1894م في كتاب له سماه (المرأة والشرق). ومن المؤسف أن المرأة المسلمة التي كانت تنعم بكرامتها وحقوقها استخدمت باسم التحرير والتطور مصيدة لجمع المال، ومطية لتحصيل المتعة، ووسيلة للدعاية التجارية.

هـ- **السيطرة على الصحافة والاعلام:** التي كانت تعمل على تطوير الإسلام وإيجاد تفسير جديد له يخدم أهداف التغريبين، ويقوي الصلة بهم، وهذا التطوير كان خطراً خفياً انقادت له مجتمعات المسلمين دون إدراك لوجه الخطر فيه. ولا غرابة في الاهتمام بالصحافة فهي كما يقرر (جب) أقوى أدوات التغريب، وأعظمها نفوذاً في العالم الإسلامي، ولا سيما أن مديريها ينتمون في معظمهم إلى من يسميهم التقدميين؛ ذلك أن معظم الصحف واقعة تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية.

و- **تطوير الفكر الإسلامي:** مع بداية القرن العشرين تحول اهتمام المستشرقين في دراساتهم نحو تطوير الفكر الإسلامي، وهي دراسات موجهة هادفة، تسير تطور السياسة الاستعمارية في البلاد الإسلامية، واتجاهها إلى التغريب. وهذا ما يوضحه (سميث) في كتابه: (الإسلام في التاريخ الحديث) الذي صدر عام 1957م من أن الإسلام يجتاز مرحلة تحول وتغيير خطيرة، وأن دراسة هذا التطور تعني المسلمين لكي يشاركوا في تطوير حياتهم مشاركة واعية، ويرى أن ذلك ضروريا لترويج مفاهيم التحرر والعلمانية والعالمية في العالم الإسلامي.

آثار التغريب:

استطاعت حركة التغريب التغلغل في كل بلاد العالم الإسلامي، وترك بصماتها على كل مظاهر الحياة، والتأثير في فكر المجتمع الإسلامي وسلوك أفراد، وقد تفاوتت حجم التأثير من بلد إلى آخر وكان من أبرز هذه الآثار ما يأتي:

- ✓ زعزعة اعتقاد المسلم ودفعه إلى ترك الالتزام بأحكام الإسلام.
- ✓ تكريس التبعية للغرب في كل توجهات المسلمين وممارساتهم.
- ✓ منع تطبيق الشريعة الإسلامية.
- ✓ إعاقه العمل نحو الوحدة الإسلامية.
- ✓ إلغاء بعض عادات المجتمع الإسلامي وقيمه وإحلال بعض عادات الغرب وقيمه مكانها.

انتهاء المجازرة السابعة

المحاضرة الثامنة

العولمة الثقافية

مقدمة:

يزداد الاهتمام العالمي يوماً بعد يوم على مستوى الدول والشعوب بموضوع العولمة ومظاهرها المختلفة. ويكاد هذا الموضوع أن يستحوذ على مساحة كبيرة من الرأي والفكر والحوار والنقاش في وسائل الإعلام والمؤتمرات والندوات الدولية والإقليمية. وهذا يعني أن العولمة من القضايا الساخنة والمثيرة التي تشغل بال كثير من العلماء والمفكرين في الوقت الحاضر، وتجعلهم يتطلعون إلى الإسهام في توضيح حقيقتها وتجليتها غموضها وكشف خباياها والإجابة عن ما يثار حولها من تساؤلات واستفهامات، والتعرف على آثارها المستقبلية. وإذا كانت العولمة قد برزت في مظهرها الاقتصادي والإعلامي فإنها الآن في مرحلة ترسيخ المظهر الثقافي الذي يعد أكثر صعوبة وحساسية من المظاهر الأخرى.

تعريف العولمة:

في اللغة: كلمة عولمة مصدر قياسي على وزن فوعلة مشتق من الفعل الرباعي عولم من العالم، مثل حوقل حوقلة، وهي كلمة تدل على التغيير والتحول من حال إلى حال.

في الاصطلاح: العولمة مصطلح جديد، له عدة مرادفات، هي الكوكبة والكونية الشاملة والحادثة. هذا المصطلح لم يكن له وجود قبل منتصف عقد الثمانينات الميلادية من القرن الماضي؛ إذ إنه قبل هذا التاريخ لم يكن له حضور خاص. بل إن معجم (إكسفورد) للكلمات الإنجليزية الجديدة أشار إليه لأول مرة عام 1991م واصفاً إياه بأنه من الكلمات الجديدة التي برزت خلال التسعينات. ومع هذا التداول المتزايد لا بد من الاعتراف بأن العولمة من حيث الواقع تمثل ظاهرة سياسية واقتصادية وثقافية؛ بل واجتماعية غير محددة المعالم، وغير مجمع على صورتها، ولا مجمع على هيمنتها. ولكن يراد لها أن تكون سمة هذا العصر، ومصير الشعوب، وهو ما يمكن استقراؤه من خلال إمعان النظر في تعريفات العولمة الآتية:

- **هي:** اتجاه الحركة الحضارية نحو سيادة نظام واحد، تقوده في الغالب قوة واحدة.
- **هي:** استقطاب النشاط السياسي والاقتصادي في العالم حول إرادة مركز واحد من مراكز القوة في العالم.
- **هي:** تحويل العالم إلى قرية واحدة يتحكم فيها نظام رأسمالي واحد، يلزمها بالتخلي عن ديانتها وقيمها وحضارتها شرطاً لتحقيق النجاح في مجال تنمية الاقتصاد والسوق وجودة الأسعار.

نشأة النظام الجديد [العولمة]:

بعد انتهاء الحرب الباردة بين القطبين أمريكا والاتحاد السوفييتي التي دامت أكثر من 45 سنة حدد الرئيس الأمريكي بوش الأب في عام 1991م. إطار هذا النظام في خطابه الذي ألقاه أمام قوات التحالف في الكويت بعد انتصارها في حرب الخليج الثانية قائلاً: (إننا نرى الآن ظهور نظام عالمي جديد... عالم تصبح فيه الأمم المتحدة بعد تحررها من الطريق المسدود للحرب الباردة قادرة على تحقيق الرؤية التاريخية لمؤسسيها، عالم تحترم فيه جميع الأمم الحرية وحقوق الإنسان). لعل الرئيس بوش كان يقصد من تحقيق الرؤية التاريخية قيام وحدة عالمية تتجاوز أسباب الصراع، وتستبعد عوامل التناقض بين الشعوب؛ وهذا يقتضي التساؤل: علام تقوم هذه الوحدة؟ إن كثيراً من المفكرين والمحليلين يرون أنها ستقوم على أساس سيادة النموذج الرأسمالي.

دوافع العولمة:

- ❖ ظهور الثورة التقنية التي سميت بالثورة الصناعية الثالثة، وتمثلت في التقدم الصناعي الغربي الهائل، ولاسيما في مجال الاتصالات والمعلومات والفضاء والحاسب الآلي والإلكترونيات الدقيقة والهندسة الوراثية.
- ❖ تحرير التجارة الخارجية بين الدول عن طريق رفع القيود عن النشاط الاقتصادي وإبرام الاتفاقيات الدولية التي سعت إلى فتح الأسواق العالمية أمام التجارة العالمية، وإزالة كل القيود والحواجز أمام التجارة الدولية.
- ❖ قيام شركات كبرى متعددة الجنسيات، متنوعة النشاطات متميزة بضخامة نشاطها وإيراداتها ومبيعاتها، تمتلك أرصدة ضخمة وإمكانات مادية هائلة وقوة إنتاج واسعة. استطاعت هذه الشركات أن تفرض نفسها على الواقع الاقتصادي بحيث تعجز الدول من أن تحد من تأثيرها.
- ❖ تنامي القوة العسكرية الغربية ولاسيما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في عام 1991م وقد سبقه في عام 1989م تحول الدول الأوروبية الشرقية من النظام الاشتراكي إلى النظام الاقتصادي الغربي، واتباعها لسياسات الانفتاح على أسواق الدول الغربية وعلى الفكر الغربي. ولا ريب في أن هذه الظروف أسهمت في إظهار الدول الغربية على أنها قوة عالمية واحدة، تقود نظاماً جديداً يسعى إلى نشر نمط الحياة الفكرية الغربية بكل مفاهيمها ونظمها وقيمتها بين المجتمعات.

العولمة الثقافية:

إن الثقافة ذات خصوصية؛ إذ إن لكل أمة من الأمم مبادئ وقيماً ومفاهيم تمثل شخصيتها الظاهرة، وتعبّر عن نظرتها للحياة، وتنم عن تصورهما للوجود، فتحرص على استمرارها والحفاظة عليها. وحينما نستعرض سلسلة الأحداث الكبيرة التي غيرت تاريخ العالم من اشتعال حروب وقيام دول وحركات فكرية ونهضات علمية نجدها جميعها تهدف إلى اقتلاع فكرة وإحلال فكرة أخرى مكانها. وتمثل ظاهرة العولمة في الوقت الحاضر إحدى الحلقات الجديدة في هذه السلسلة الممتدة، والتي يمكن القول بأن العولمة الثقافية أحد وجوهها وأكثرها تميزاً، وأعظمها خطراً، وهي تعني إلغاء ثقافات الشعوب المترامية والموروثة لتحل محلها ثقافة النظام الواحد عن طريق الوسائل الحديثة المستخدمة من أجل إحداث التحول المطلوب. إن المرحلة القادمة من الجهود الغربية المبذولة في التحول العالمي ستنتج نحو الاهتمام بالعولمة الثقافية نظراً للعناية المتزايدة من الدول الغربية وبعض الدول الشرقية التي تسير في ركابها كاليابان بثقافة المعلومات والمعرفة العلمية نتيجة لما تحقّق من تطور صناعي سريع ومذهل في العلم وتقنية وسائل الاتصال والإلكترونيات. إن العولمة في اتجاهها الفكري تطمح إلى صياغة ثقافة كونية شاملة، تغطي مختلف جوانب النشاط الإنساني، فهناك اتجاه صاعد يضغط في سبيل صياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية. وإن هذه الثقافة مهما استخدمت في صياغتها من صبغة علمية ومعرفية فإنها كما يراها عبد الوهاب المسيري صيغت داخل التشكيل الحضاري والسياسي الغربي، فهي تحمل معالم هذا التشكيل، وتودور في إطار العلمانية الشاملة التي تدعو إلى إنكار القيم وتأكيد النسبية المعرفية والأخلاقية.

معالم العولمة الثقافية الغربية:

- تبرز معالم تأثير هذه العولمة على العالم وعلى العالم الإسلامي بصفة خاصة في الوقت الحاضر فيما يلي:
- التذويب الكلي أو الجزئي للهوية الثقافية: تسعى العولمة إلى التذويب الكلي أو الجزئي للهوية الثقافية ذات الخصوصية الشديدة لدى المجتمعات. وإذا كانت العولمة تستهدف هذا التذويب، وتعمل على انهيار هذه الثقافات وذوبانها فإن هذا يعني أن الثقافة بما فيها ثقافتنا الإسلامية ستعرض لمواجهة شديدة تنعكس سلباً على مجتمعنا المتمسك بجذوره الثقافية، وستكون هذه الثقافة في محك الامتحان.
 - العمل على إبراز الثقافة الغربية بما تشتمل عليه من مفاهيم وقيم وقناعات ومواقف إنسانية مشتركة وعابرة لكل المناطق الحضارية، وفرضها على ما سواها من الآراء والأفكار على أساس أنها الثقافة البديلة.
 - استغلال المؤسسات الاقتصادية والوسائل الإعلامية والنشاط السياحي لترويج الفكر الغربي داخل المجتمعات بطريق غير مباشر، فقد أصبحت المؤسسات الاقتصادية القائمة وسائل إلى للاحتمار والتعامل بالفائدة وتجاهل مشاعر الفقراء والمحتاجين وتنمية الفوارق بين فئات المجتمع وتعظيم صورة المال في النفوس والقضاء على الملكيات الصغيرة وتحويل الناس إلى عمال لفئة قليلة من ملاك رؤوس الأموال والشركات الكبرى.

أخطار العولمة الثقافية:

- قد يصعب حصر الأخطار التي تنشأ عن العولمة بصفة عامة؛ بل قد يطول الحديث عن أخطارها الثقافية، ولكن يمكن الاقتصاد على أهمها، وهي:
- تغييب المبادئ الدينية والخلقية تحت وطأة تأثير الفكر الغربي والنظريات المنحرفة عن الدين والقيم، ومصادرة الانتماءات الدينية عدا الانتماء إلى النصرانية، الذي لا نجد في حركة العولمة الغربية ما يدل على الإلزام بالتخلي عنه لأنه يعد نوعاً من أنواع الحرية الشخصية في الفكر العلماني الغربي؛ ذلك أن واقع الدول الغربية التي تروج للعولمة، وتسعى إلى فرضها على الشعوب عن طريق مصادرة الانتماء الديني لم تزل على رغم علمانيتها تسيير على الخط المسيحي في توجيهها العام.
 - فرض التأقلم مع الحضارة الغربية والذوبان فيها: ذلك أن العولمة ليست محصورة في الاقتصاد وحرية التجارة الدولية التي تعد المحرك الرئيس لها، وليست مجرد وسائل تنقل العقائد والقيم والنظم بشكل سريع يمكن لكل أمة الاستفادة منها في ترسيخ عقائدها وقيمه ونظمها، وليست فكرة خاضعة لحرية الفرد أو حريات الشعوب بحيث يأخذ كل واحد ما يريد منها، ويدع ما لا يريد، وإنما هي تأقلم وذوبان مع معطيات الحضارة الغربية بخيرها وشرها.
 - إخضاع القيم والأخلاق لقانون فكرة العصرية والنسبية: ذلك أن العولمة الغربية لا تؤمن بأي قيم ثابتة، ولا تعترف بوجود كليات ملزمة؛ بل تتجاوز العقائد والموروثات والقيم الأصيلة إلى ما تقتضيه السيولة الفكرية التي تقوم عليها فكرة العصرية والنسبية من التطور وعدم الثبات وقبر كل قديم وثابت من الأخلاق والقيم.

الموقف من العولمة الثقافية:

مضت سنة الله ﷻ في حصول التدافع بين الناس والصراع بين البشر، وتمثل ظاهرة العولمة أحد صورهِ الحديثة. قال ﷻ: ﴿وَلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ هذا التدافع يستلزم أن يتم بين طرفين مختلفين؛ لكن لا يستلزم أن يرفض أحدهما ما عند الآخر كلياً. وعلى الخصوص لا يصح أن يقبل ما عنده كلياً لأن القبول يتنافى مع معنى التدافع المقتضي للرفض ولو جزئياً. إن اتخاذ المسلمين موقفاً من العولمة في ظل التدافع القائم بين الحضارات ، ولاسيما مع الدول الغربية التي تقود هذه العولمة يحتاج إلى حكمة ووعي، فليس القبول المطلق للعولمة التي تفرضها هذه الدول على الشعوب الإسلامية صائباً، وليس رفض العولمة جملةً صحيحاً أيضاً لأنه مناف للحكمة، ويعرض الشعوب الإسلامية لضرر أكبر. يتعين على المسلمين رفض الانسياق مع العولمة فيما يتعارض مع دينهم وهوية أمتهم وإثبات خصوصيتها نظراً لأن العولمة تستهدف صهر الأمم والمجتمعات في بوتقة واحدة هي بوتقة الحضارة الغربية وعلى الخصوص الحضارة الأمريكية. إن استثمار المسلمين لما يمتلكونه من عقيدة صحيحة لهي من أقوى العناصر المؤثرة في قلوب المجتمعات والشعوب؛ ذلك أن الخواء الروحي المتفشي بين الناس وطفيان المادية المتسلطة وانتشار الأمراض الفتاكة الناشئة من فساد الأخلاق وغياب القيم، ورواج المخدرات بين الأفراد، وابتدال الجنس لهي من أهم الظواهر الفكرية والاجتماعية التي تعاني منها شعوب العالم، ويعالجها الإسلام مخلصاً هذه الشعوب من شرورها، وواقعية الإسلام وعنايته بمصلحة الإنسان وبكل متطلبات تكوينه هي من أهم ما يساعد على سرعة انتشاره بالرغم من جاذبية المدنية الغربية المادية التي ابتليت مجتمعاتها بهذه الظواهر السيئة. كما أن التأييد المطلق للعولمة الثقافية بحجة أن الانفتاح على الثقافات الأخرى أصبح من سمات العصر، وأن الرفض المطلق لن يفني قتيلاً في إيقاف المد الغربي الثقافي الزاحف على العالم الإسلامي هو نوعٌ من الاستسلام الرخيص المتجاهل لطبيعة الدين الإسلامي والمتغافل عن تاريخ الأمة الإسلامية وثقافتها. إن الموقف السليم يقتضي رفض العولمة الثقافية الغربية التي لا تؤمن بغير قيمها، وتريد تذويب ثقافتنا الإسلامية، ورفض كل ما يخالف ديننا وقيمنا الشرعية، ورفض كل ما يمسح بشخصيتنا أو يبدل هويتنا. ويقتضي ألا نكتفي بمجرد الرفض وحده؛ بل لا بد أن نكون إيجابيين في الموقف بحيث نتبنى نهج المواجهة لعولمة المسخ الثقافي أو العدوان الثقافي، وهذا يتطلب منا التثبث بهويتنا الثقافية الإسلامية ذات الخصائص المستمدة من عقيدتنا وديننا.

انتهاء المجازرة الثامنة

المحاضرة التاسعة

الحوار

مقدمة:

تردد لفظ الحوار في العقود الأخيرة في محافل شتى، ووصفت به أنواع متباينة من العلاقات لا يستطيع المراقب أن يقول: إنها كلها كانت مجاوبة تؤدي إلى النفع العام للمحاورين - أفراداً وجماعات - بل كان بعضها كذلك، وكان بعضها الآخر محاولة من القوي لفرض رأيه وثقافته، ونظرته إلى الكون والناس والأشياء. وهذا ما يدعونا إلى تناول هذا الموضوع ((الحوار)) بالتحليل والمناقشة حسب الخطة المذكورة.

تعريف الحوار وأهميته:

تعريف الحوار:

الحوار في اللغة من الحور وهو: الرجوع عن الشيء إلى الشيء؛ ويقصد به: المراجعة في الكلام. والجدال: من جدل الجبل إذا قتلته، أطلق على من خصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، ثم استعمل في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها. وبين الجدال والحوار فرق؛ فالحوار مراجعة الكلام وتبادلته بين المتحاورين وصولاً إلى غاية مستنداً إلى أنه يجري بين صاحبين أو اثنين ليس بينهما صراع، ومنه قوله ﷺ: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾. وأما الجدال فأكثر وروده في القرآن الكريم بالمعنى المذموم كقوله ﷺ: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾. وهذا الجدال حوار لا طائل من ورائه. ولكن جاء الجدال أيضاً محموداً في مواضع كقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِنَّا بَاتِلِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وقوله ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَاتِلِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ فالجدال باتلي هي أحسن مرادف للحوار الإيجابي البناء. ويجمع بين الحوار والجدال معنى تطرح الرأي والأخذ والرد وقد جمعها قوله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. ويراد بالحوار والجدال في مصطلح الناس: مناقشة بين طرفين أو أطراف، يُقصد بها تصحيح كلام، وإظهار حجة، وإثبات حق، ودفع شبهة، ورد الفاسد من القول والرأي.

أهمية الحوار:

- يكتب الحوار أهمية بالغة في منظومة الدعوة الإسلامية؛ فهو أسلوب أصيل من أساليب الدعوة ومعلم بارز في منهجها الرشيد.
- وللحوار دوره الكبير في تأصيل الموضوعية.
- والحوار قديم قدم البشرية فهو نابع من أعماق النفس البشرية.
- ومما ورد في القرآن الكريم الحوار الذي كان بين آدم وزوجه وهما في الجنة، وكذلك ما أمر الله به الملائكة من السجود لآدم لما خلقه. قال ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أهداف الحوار:

وهي كل ما يحقق الخير والصالح والأمن والسلام والرخاء والطمأنينة للناس كافة. وفي اللفظ القرآني ((التعارف)) ما يُغني ويفيد ويقوي ويزكي هذه المعاني جميعاً. قال ﷺ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾**. فالتعارف هنا يتسع ليشمل التعاون والتعايش، وكلّ ضروب العمل الإنساني المشترك لما فيه الخير والمنفعة لبني البشر. وهو هدف سام من أهداف الحوار. وينبغي أن تبدأ أهداف أي حوار من الإنسان وتدور حول شؤون وقضايا، وتعود إليه؛ لنلا يفقد الحوار قيمته وأهميته ومضمونه الغني. وهذه الأهداف من الكثرة بحيث يتعذر حصرها، ولكن يمكن إجمالها فيما يلي:

- معرفة أطروحات الطرف الآخر ووجهات نظره وحججه في القضايا التي هي موضوع الحوار، وتعريف الطرف الآخر بما يغيب عنه أو يلتبس عليه من المعلومات ووجهات النظر والبراهين في القضايا التي هي موضوع الحوار.
- العمل على إقناع الطرف الآخر ليتخلص من وجهات نظره ومواقفه كلياً أو جزئياً في القضايا التي هي موضوع الحوار ليتقبلها ويعمل على تبنيها بعد اقتناعه بها سواء بعد الحوار مباشرة أو تدريجياً على المدى الطويل.
- العمل على استكشاف ما لدى الطرف الآخر من حقائق وإيجابيات والاعتراف بها وقبولها والاستفادة منها طالما لأن الحكمة ضالة المؤمن؛ أنى وجدها فهو أولى بها.
- العمل على استكشاف ما عند المحاور من معلومات غير صحيحة أو دقيقة ومما في وجهات نظره أو مواقفه من ثغرات وأخطاء والعمل على تداركها وإصلاحها.
- تشييد جسر للتواصل السلمي البناء وسد الطريق أمام المواجهات والمصادمات مما يبدد الجهود.
- يساعد الحوار على التوقد الذهني وهي صفة ملازمة لأجواء التحدي الفكري والحوار المتبادل.
- قد يؤدي الحوار إلى إيضاح الحقيقة بالإضافة إليها، فيعطي كل فرد ما يعرف من أجزاء الحقيقة حتى يمكن تركيبها كاملة وحتى صاحب الحق فإن أجزاء من الحق تبرز له بصورة أوضح أثناء توقده الذهني في لحظات الحوار.
- إحباط حجج المتطرفين والمتعدين؛ فكثير من حوارات كبار علماء الإسلام مع الفرق الضالة كشفت زيف أفكارهم وذلك ما سجلته كتب تراثية خالدة كـ: ((الملل والنحل)) لشهرستاني، و((الفصل بين الملل والأهواء والنحل)) لابن رشد، و((الرد على الجهمية)) لابن تيمية، و((الصواعق المرسلية)) لابن القيم، و((المسألة القاديانية)) للمودودي، وغيرها.
- إقامة الحججة: الغاية من الحوار إقامة الحججة ودفع الشبهة والفساد من القول والرأي، والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق.
- الدعوة: الحوار الهادئ مفتاح لقلوب وطريق إلى النفوس. قال ﷺ: **﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾**.
- تقريب وجهات النظر: من ثمرات الحوار توضيق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر، وإيجاد حل وسط يرضي الأطراف في زمن كثر فيه التباغض والتناحر.
- كشف الشبهات والرد على الأباطيل؛ لإظهار الحق وإزهاق الباطل كما قال ﷺ: **﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**.

- ✓ وفي مجال الدعوة إلى الله نجد أن الإسلام ينبذ العنف لأن الدعوة الإسلامية تستهدف البدء بتغيير النفس وإعادة صياغة الإنسان. قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾. وتغيير ما بأنفسهم وما بداخلهم لا يتأتى بالإكراه أو العنف لأن العنف يؤدي إلى النفاق، فإذا استعملت العنف في الدعوة أكرهت الآخرين، فأنت تكسب بذلك مناقفاً لا مؤمناً لأنك تكسب الظاهر، أما الداخل أو الباطن فلا يظهر، ومن هنا كانت وما زالت الحكمة والموعظة الحسنة، والحوار والجدال بالتي هي أحسن سبيل الدعوة.
- ✓ فالحوار والمجادلة بالتي هي أحسن من أبرز وسائل الدعوة إلى الله وهي علامة على وسطية الأمة: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وقد كان رسول الله ﷺ يحاور الناس ويبحث عنهم يقبل دعوته، واستخدم الوسائل المتعددة لتبليغ الرسالة ومنها الحوار. وقال ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب.

مُنْتَطَقَاتُ الْحَوَارِ مِنْ مَنْظُورِ إِسْلَامِيٍّ:

- ما دام الحوار الراقي هو مظهراً حضارياً يعكس تطور المجتمع ونضج فئاته الواعية فإنه لا بد أن يستند إلى أسس ثابتة، وضوابط محكمة، وأن يقوم على منطلقات أساسية يمكن حصرها في ثلاث، هي:
- **الاحترام المتبادل:** وفي رؤيتنا الإسلامية الحضارية فإن الاحترام المتبادل بين الأطراف المتحاوره هو المنطلق الأول الذي يجب أن يرتكز عليه الحوار، وهذا يفترض وجود قواسم مشتركة تكون إطاراً عاماً وأرضية صلبة للحوار. ولنا في القيم الدينية والمبادئ الإنسانية والقواعد القانونية غناءً لجميع الفرقاء المشاركين في الحوار على أي مستوى كان، وهي جميعاً قيم ومبادئ تحكم علاقات البشر، وتضبط مسار حركاتهم وسكناتهم، وتضع القواعد الثابتة للتعامل فيما بينهم.
- **الإنصاف والعدل:** ولنا في قوله ﷺ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ قاعدة ثابتة، وهداية دائمة؛ فالعدل هو أساس الحوار الهادف الذي ينفع الناس ويمكث أثره في الأرض. إن العدل هو روح الشريعة الإسلامية، وهو جوهر القانون الوضعي، وهو الأساس الراسخ الذي يقوم عليه القانون الدولي الذي يجب أن يسود المجتمعات البشرية كلها؛ ولذلك فإن العدل والإنصاف في مفهومنا الإسلامي هو الشرعية الحضارية التي ينبغي أن تكون منطلقاً للحوار؛ أيّاً كان مستواه، ومهما تكن أهدافه.
- **نبذ التعصب والكراهية:** ونجد أصلاً لهذه القاعدة في قوله ﷺ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. والتوجيه القرآني هنا يرقى من مستوى نبذ التعصب والكراهية إلى مقام أرفع؛ وهو البر بالإنسان كافة، ومعاملتهم بالقسط جميعاً. والبر هو الإحسان بكل دلالته الأخلاقية واللفظية؛ وتتلو قوله ﷺ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

حوار الحضارات:

دعت منظمات عديدة لحوار الثقافات في الثمانينيات من القرن العشرين ثم انتهى هذا الحوار إلى أوراق في كتب نشرت عن لقاءاته، لكنها لم تثمر تغييراً ثقافياً حقيقياً ملموساً حتى الآن. وحين ترددت في أرجاء الكون الثقافية والسياسية صيحة الكاتب الأميركي صامويل هنتنغتون عن ((صراع الحضارات))، أو صدامها كان البديل العاقل المحتمل لها هو الحديث عن حوار الحضارات، والدعوة إليه، والعمل على إنجاحه لتجنب البشرية ويلات الصراع، ولتجاشي آثار الصدام المؤلمة أو المدمرة. وحوار الحضارات مطلب إسلامي عبّر عنه كثير من المفكرين المسلمين، بل ردوا به على تحليلات صامويل هنتنغتون الخطيرة والمخيفة.

مفهوم حوار الحضارات وأهدافه:

حوار الحضارات هو التشاور والتفاعل الثقافي بين الشعوب، والقدرة على التكيف مع الأفكار المخالفة والتعامل مع جميع الآراء الثقافية والدينية والسياسية. تتعدد أهداف الحوار الحضاري، ومنها: التعارف والتواصل وكذا التفاعل والاحتكاك الحضاري.

مَجالاتُ الحوار الحضاري:

- ❖ **المجال الديني:** يتجلى في الحوار بين الإسلام وباقي الديانات.
- ❖ **المجال السياسي:** هو الحوار بين مختلف التيارات السياسية.
- ❖ **المجال الاقتصادي:** هو التعاون الاقتصادي بين الدول في مختلف الأنشطة الاقتصادية.
- ❖ **المجال العلمي والفكري:** يتجلى في التبادل المعرفي وتبادل الأفكار

شُرُوطُ الحوار الحضاري:

لا يحقق حوار الحضارات نجاحه المبتغى، ولا يصل إلى هدفه المنشود ما لم تتوافر له شروط هذا النجاح ومقومات تحقيق هذا الهدف.

أولاً: الاعتراف بالآخر: أول الشروط التي لا يتم الحوار أصلاً دون توافرها هو أن يكون كل من طرفي الحوار أو أطرافه معترفاً بالآخر وبالأخرين؛ فالحوار يقتضي قبولاً مبدئياً على الأقل بوجود الآخر، وبحقه في هذا الوجود، وبخصوصيته التي لا يجوز لأحد أن يسعى إلى تغييرها، وبمقومات استمرار بقائه مغايراً ومتميزاً، وبحقه في المحافظة على هذه المقومات وتوريثها في أجياله المتعاقبة جيلاً بعد جيل. وفي القرآن الكريم الأمر الصريح بأن سبب اختلاف الخلق (شعوباً وقبائل) هو تيسير التعارف بينهم: ﴿يا أيها الناس إننا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ﴾. والتعارف يقتضي تقارباً بين المتعارفين، وتسليماً متبادلاً باختلاف كل منهما عن الآخر، ولا يستمر الأمر بالتعارف مطاعاً إلا إذا استمر التغير والاختلاف بين الناس المخاطبين بهذه الآية الكريمة قائماً. فإبناء الحضارة الإسلامية، والداعون إلى مشروعها الاجتماعي في عصرنا يسلمون بمقتضى هذا الشرط الأول من شروط نجاح حوار الحضارات، ولا يطلبون من أبناء الحضارات الأخرى إلا أن يكون لهم الموقف نفسه؛ وإلا فإن الحوار سيصبح حديثاً من طرف واحد، أو محاولة كل طرف غزو الطرف الآخر ودحره، وهكذا يعيش العالم صراعاً وصداماً، ولا يعيش حواراً ولا تعارفاً.

ثانياً: التبادل الحضاري: أي بأن يكون لكل طرف من أطرافه حق قول رأيه وبيان موقفه من القضايا التي يجري الحوار حولها مهما كان هذا الرأي أو الموقف مخالفاً لما يعتقد أو يفعله، أو يدعو إليه ويدافع عنه الآخرون. والحوار في اللغة العربية على صيغة (فعال)، وهي جمع فعل؛ أي: إنه لا يتحقق بفعل طرف واحد، وإنما بأفعال أطراف متعددين. والحضارات المتباينة الحية تملك كل منها مقومات خاصة بها، ويراها أصحابها صواباً نافعاً، وقيمة الحوار بينها تبدو في تعرف أبناء كل منها على الأخرى كما يراها أصحابها، لا كما تراها أعين الغرباء عنها؛ رضاءً كان ما تظهره هذه العين أم سخطاً، نقصاً كان أم كمالاً، جزئياً كان قاصراً كان أم كلياً شاملاً.

ثالثاً: التجدد والتعدد: لأن الإحاطة بجوانب التميز والتغيير، ثم الإفادة منها في تبادل الخبرة والمعرفة ووسائل النمو والتلقي لا يتم في جلسة أو عدة جلسات ولا يحيط به فرد أو مجموعة أفراد، ولكنه يحتاج إلى تواصل مستمر يتعدد المشاركون فيه بتعدد جوانب الحياة وتكاثر التخصصات فيها حتى يؤول ثمرته ويحقق غايته.

رابعاً: الثقافة: من شروط نجاح حوار الحضارات واستمراره أن يكون محوره الثقافة التي تعبر عنها الحضارات المختلفة، والنشاط البشري الذي تتمثل فيه هذه الثقافة. ومن معاني هذا الشرط وضروراته أن تستبعد من الحوار بين الحضارات موضوعات العلاقات السياسية، والتبادل الاقتصادي، والاختلاف الديني.

انتهاء المحاضرة التاسعة

المحاضرة العاشرة

الإرهاب

مقدمة:

احتلت ظاهرة الإرهاب في الوقت الحاضر موقع الصدارة من اهتمام الباحثين؛ نظراً لاتساع دائرتها، وانتشارها في معظم أنحاء العالم؛ مما اقتضى بذل مزيد من الجهود العلمية في دراستها وتحليلها للتعرف على أسبابها ووسائل علاجها. لذا كانت ومنذ أربعة عقود مبعث قلق المجتمع الدولي عبرت عنه الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارها رقم ((3034)) الصادر في 1972/12/18م. حيث أوصت الدول الأعضاء فيها بالبحث عن حلول عادلة وسليمة تسمح بإزالة الأسباب المؤدية إلى أعمال العنف. وفي الوقت الحاضر ازداد الاهتمام بهذه الظاهرة بسبب تنامي الأعمال الإرهابية، وتباين أشكالها.

تعريف الإرهاب:

في اللغة: مشتق من الفعل الثلاثي (رهب)؛ أي: خاف، والرهبية في أصل اللغة تعني الخوف والفرع. وقد ظهرت كلمة رعب (Terreur) لأول مرة في اللغة الفرنسية عام 1355م وجاءت من اللغة اللاتينية (Terreor) التي تعني الخوف والقلق المتناهي الذي يساوي تهديداً غير مألوف وغير متوقع بصورة واسعة.

في الاصطلاح: يصعب وضع تعريف جامع مانع نظراً لاختلاف نظرة الدول والمجتمعات إلى هذه الظاهرة وتشعبها وتنوع بواعثها وأهدافها، واختلاف الأطر المرجعية والقانونية التي يستند عليها في التعريف. وبسبب عدم الاتفاق على تعريف اصطلاحي محدد كثرت التعريفات؛ لذا نكتفي منها بتعريف قانوني وآخر شرعي يوضحان المقصود به:

عرفه مجلس وزراء الداخلية العرب بأنه: (كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به أياً كانت بواعثه أو أغراضه يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة أو احتلالها أو الاستيلاء عليها أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر).

وعرفه المجمع الفقهي في مكة المكرمة بأنه: (العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغياً على الإنسان في دينه وعقله ودمه وماله وعرضه، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق وكل أفعال العنف أو التهديد).

الإرهاب في الماضي والحاضر:

الإرهاب ليس جديداً في تاريخ الشعوب والمجتمعات، بل عرفته البشرية منذ تاريخها القديم؛ فهو ظاهرة قديمة ابتدأت بالإقدام على قتل النفس البرينة حين استباح قبائل قتل أخيه هايبيل ظلماً وعدواناً فكان من النادمين. ويمكن عد الإرهاب المتمثل في قتل الأبرياء والاعتداء على الممتلكات وتدمير المنجزات الإنسانية والحضارية من قبيل التطرف العملي. ومن الظواهر القديمة الغلو أو التطرف الديني الذي كان متفشياً في بني إسرائيل كما أخبر ﷺ: **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق**؛ فقد مارسه اليهود ضد النصارى عملياً من منطلق عنصري يقوم على فكرة أنهم شعب الله المختار. وفي المجتمعات الرومانية القديمة شهدت النصرانية على أيدي الأباطرة الرومان إرهاباً قاسياً بسبب مصادرة حرية التدين، كان من أبرز مظاهره إحراق الإمبراطور الروماني نيرون المتوفى عام 96م. مدينة روما ليشفي حقه بمرأها وهي تشتعل بأهلها وأموالهم، وتغذيته لمؤمني النصارى. ومارست الكنيسة أسلوب الإرهاب الديني مع مخالفيها في عهد الإمبراطور الروماني (قسطنطين) في نهاية الربع الأول من القرن الرابع الميلادي. في بريطانيا أحرقت الملكة تيودور عام 1155م منتين وثلاثة وثمانين شخصاً لأنهم ينتمون لطائفة البروتستانت.

في فرنسا ابتداء من عام 1208م ولمدة خمس سنوات ذبح مليون شخص من (الألبانيين) لعلة نفسها. وفي أمريكا مورس الإرهاب ضد الهنود الحمر والملونين السود. وارتكب البرتغاليون والإسبان في القرن 15م أشنع أنواع العنف والإرهاب ضد الشعوب المستعمرة، وتبعهم في ذلك الهولنديون والبريطانيون والإيطاليون، وكانت الدول الاستعمارية تتكر على شعوب البلاد المستعمرة مقاومة هذا الإرهاب. وتعرض العالم لأثار مدمرة نتيجة حربي الإبادة العالميتين الأولى والثانية التي قادتها بريطانيا وفرنسا واليابان وأمريكا وذهب ضحيتها الملايين من البشر وتركت خسائر مالية كبيرة لا تقدر بعدد، وكانت أشنع صورها إلقاء الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية على مدينتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين. وبالرغم مما تتمتع به شعوب الدول الغربية واليابان من حريات، وما يتوافر لدى حكوماتها من قوة هائلة في المعلومات ونظم الأمن المتطورة فإنها غدت في العقود الماضية بيئة للأعمال الإرهابية الموجهة ضد أمنها وسيادة القانون فيها فقد:

- ظهر التيار النازي في ألمانيا ثانية وبقوة منذ عام 1986م .
 - ظهرت حركة (لوبن) القومية المتطرفة في فرنسا.
 - ظهرت حركة (الباسك) الإسبانية التي تسببت في قتل مئات الأبرياء من المواطنين والسياح، وإتلاف ما قيمته ملايين الدولارات.
 - تعرضت بريطانيا منذ عام 1970م لسلسلة من الأعمال الإرهابية الخطيرة من جانب جيش إيرلندا الجمهوري .
 - ظهرت جماعات اليمين المتطرف في ألمانيا على أعقاب توحيد ألمانيا وزيادة حجم البطالة.
 - ظهر الجيش الأحمر الألماني ومجموعة (أندرياس بادر ماينهوف).
 - ظهرت الأنشطة الإرهابية للأجنحة العسكرية اليسارية في كل من فرنسا وبلجيكا.
 - ظهرت الفيلق الحمراء الإيطالية (الألوية الحمراء).
 - ظهرت منظمة (حقيقة أوم العليا)، و(مافيا يكوزا) في اليابان.
- عانت الولايات المتحدة الأمريكية من المنظمات الإرهابية الأمريكية وغيرها، وفي مقدمتها منظمة (كوكلوكس كلان) التي تأسست ما بين عامي 1861م - 1865م، وتعرضت لعدد من الأعمال الإرهابية منها حادث المركز التجاري بأكلاهوما عام 1995م الذي راح ضحيته 186مدنياً و400 جريح على يد أحد رجال الجيش الأمريكي ويدعى (تيموثي ماك فاي). تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية في 9/11 لحوادث اختطاف طائرات أدت إلى تدمير المركز التجاري في نيويورك وهدم جانب من وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن وتسبب في قتل ثلاثة آلاف شخص تقريباً. تطورت ظاهرة الإرهاب في الوقت الحاضر لتظهر في أشكال مختلفة ومتنوعة مثل اختطاف الطائرات ونسف المباني والجسور وتدمير المنشآت الحضارية وغيرها. ولم تسلم منها دولة من الدول أو مجتمع من المجتمعات البشرية بما فيها المجتمعات المتقدمة علمياً والغنية مادياً والقوية أمنياً. مما يدل على أنها لا ترتبط بدين من الأديان ولا بشعب من الشعوب، ولا بطبقة اجتماعية معينة، وإنما تحدث غالباً كمسك تنفيذي لمعتقد خطأ، أو مسك انتقامي، أو بسبب وازع عدواني يصدر عن نفس خبيثة ملئت حقداً وكراهيةً للأخرين وطبعت على حب التدمير والإفساد في الأرض، وغذاها الجهل والفقر والإحباط النفسي. وقد تعرضت الشعوب الإسلامية أكثر من غيرها لحوادث القتل والإبادة الجماعية. فقد عانى المسلمون لمدة قرنين ابتداء من نهاية القرن العاشر الميلادي من حروب صليبية متوحشة في الشام ومصر. تعرضوا في الأندلس لألوان من التعذيب والتنكيل والإبادة الجسدية خلال عامي 1609-1610م عن طريق محاكم التفتيش التي سيقوا إليها في قشتالة وإشبيلية وغرناطة. ذاقوا مرارة الهيمنة العسكرية الاستعمارية الإيطالية والبريطانية والفرنسية والإسبانية والهولندية خلال القرنين التاسع والعشرين التي تفننت في التعذيب والاضطهاد واجتثاث كل حركات التحرر من الاستعمار، ولا تزال الشعوب الإسلامية في سورية وفلسطين وكشمير والفلبين والعراق وأفغانستان تتعرض لألوان من الإذلال والمهانة.

موقف الإسلام من الإرهاب:

الإرهاب مرفوض في الأديان والقوانين ، ويمثل خطراً على المجتمعات والدول؛ إذ يتخذ من إهلاك الحرث والنسل بغير حق وسيلة لتحقيق هدف من الأهداف الشخصية أو القومية أو الدولية. نبذ الإسلام التطرف بكل أشكاله، وعدّه نوعاً من الظلم. قال ﷺ: ﴿وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقط ظلم نفسه﴾. وبين أن مصير الغالي المتنطع الهلاك والانتقاع. قال ﷺ: ((هَلْكَ الْمُتَنَطِّعُونَ))، وقال ﷺ: ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا)). واعتبر الإسلام التطرف العملي نوعاً من المحاربة لله ورسوله والإفساد في الأرض يستحق فاعله أشد العقوبات وأقساها. قال ﷺ: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾. ذلك أن الإسلام دين يمتلك صيغة وفاق إنساني عالمي، يملكها منهجاً، ويملكها سيرة وتاريخاً وحضارة من غير أن يصادر حقوق الآخرين وتطلعاتهم، ويحقق ذلك من خلال مبادئ عادلة يرتضونها لأنفسهم؛ من هذه المبادئ: سماحته ورحابته مبادئه واحتواؤه على أسس التعايش السلمي العالمي لجميع أمم الأرض مهما اختلفت انتماءاتها الدينية والطائفية والعرقية والثقافية، ومنها أنه لا يكره أحداً على دخول الإسلام. كما أن الإسلام دين يدعو إلى السلام والتسامح والأمن والاستقرار على الأرض، وهو دين رفع شعار السلام، وجعله عنواناً له، وعلى أساسه رسم ملامحه ومبادئه، فقد قضى على نزعات العنف الهدامة، وعلى بذور الشر في النفس الإنسانية. وإذا كان التطرف أو الإرهاب ينشأ أو يرتكب لدوافع سياسية واقتصادية واجتماعية فإنه عاج هذه الدوافع من المهدي، ولم يسمح بوجودها أو تطورها، وقد دعا إلى نبذ العنف والإكراه، والجنوح إلى السلم، وحرّم استخدام القوة بشكل غير مشروع. وأمر أن يعتمد الحوار مع المخالف على المجادلة بالتي هي أحسن، وشرع قانوناً متكاملأً يحدد جرائم الإفساد في الأرض التي تحدث على وجه الإخافة والإرهاب، وبين صورها، وجزاء مرتكبيها، وعدّها نوعاً من محاربة الله ﷻ قبل محاربة أفراد المجتمع. بل سبق الإسلام جميع الدساتير الحديثة في معالجة ظاهرة التطرف ومكافحة الإرهاب والعنف، وذلك عن طريق تقرير المبادئ التي تعترف بكرامة الإنسان ومسؤوليته، وتشريع الأحكام التي تحفظ حياته وعرضه وماله ودينه وعقله. لذا منع الإسلام بغي الإنسان على أخيه الإنسان، وحرّم كل عمل يلحق الظلم به. قال ﷺ: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾. وشنع على الذين يؤذون الناس في أرجاء الأرض، ولم يحدد ذلك بديار المسلمين كما في قوله ﷺ: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يجب الفساد﴾. وقيم الإسلام علاقة المسلم بالمخالف له في الدين من أهل الكتاب وغيرهم على أساس التعامل بالبر والقسط والاعتراف له بالحقوق المدنية، والعيش في ديار المسلمين بأمان سواء كان ذمياً أو مستأمناً. قال ﷺ: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾. وقد أوجب الدية والكفارة على قتل أحدهم خطأ. قال ﷺ: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾.

موقف المملكة العربية السعودية من الإرهاب:

تعد المملكة في مقدمة الدول التي أعلنت حربها على الإرهاب، وقد حرصت على المشاركة في المؤتمرات الإقليمية والدولية التي تعنى بهذا الموضوع، وعلى الانضمام إلى الاتفاقيات العربية والدولية التي تسهم في مكافحة ظاهرة الإرهاب. كما أنها عملت بكل دقة وجدية على تنفيذ بنود الاستراتيجيات والخطط الأمنية التي تم إقرارها لتحقيق التكامل الأمني ومكافحة الجريمة بكل صورها وأشكالها والحفاظ على أمن الوطن وحماية حياة أفرادهم وممتلكاتهم، وتوثيق أواصر التعاون الأمني خاصة بين الدول العربية. ومن ذلك تنفيذ الإستراتيجية العربية لمكافحة الإرهاب التي أقرها مجلس وزراء الداخلية العرب عام 1417هـ، وأعقب ذلك إقرار الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب في صورتها النهائية عام 1419هـ بهدف تعزيز التعاون لمنع الإرهاب ومكافحته وإزالة أسبابه، والتعاون مع الدول والمنظمات الدولية من أجل ذلك. ومن المؤسف أن المملكة العربية السعودية لم تسلم من هذه الظاهرة؛ إذ اجتاحت موجتها بعض مدنها الكبيرة متعرضة لحوادث إرهابية مؤلمة، كان ضحيتها الأبرياء من المدنيين ورجال الأمن، وحصول دمار لبعض مراقفها الهامة وبنيتها التحتية، واستهدفت أمنها ووحدتها. إن الأعمال الإرهابية تعد من الناحية الشرعية جريمة خطيرة لما لها من آثار سيئة على ضروريات الناس وحياتهم ومعاشهم؛ لذلك ألحقتها هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية بجريمة الحرابة والإفساد التي توعد الله فاعلها بعقوبة زاجرة لبشاعتها وعظم ضررها، يظهر هذا جلياً في قرارات الهيئة وفق ما يأتي:

- **اعتبار قتل الغيلة نوعاً من الحرابة**، وهو ما كان عمداً عدواناً على وجه الحيلة والخداع، أو على وجه يأمن معه المقتول من غائلة القاتل، وذلك بقرار الهيئة رقم (38) وتاريخ 1395/8/11هـ .
- **اعتبار التفجير والاختطاف وإشعال الحرائق في الممتلكات العامة والخاصة، ونسف المساكن والجسور والأنفاق، وتفجير الطائرات أو خطفها من الحرابة**، وذلك بقرار الهيئة في دورتها الثانية والثلاثين المنعقدة في مدينة الطائف في الفترة من 1409/1/8هـ إلى 1409/1/12هـ .
- **اعتبار حوادث التفجير التي حدثت في بعض المدن العربية، وما حصل بسببها من قتل وتدمير وترويع وإصابات لكثير من الناس من المسلمين وغيرهم من الإفساد**، وذلك في بيان أصدره مجلس الهيئة في الطائف في 1417/2/14هـ . لذا فإن المسلم يجب عليه أن يخاف الله ﷻ ويتقيه، ويتجنب كل ما فيه إضرار بأمن الناس ومعاشهم، وأن يتعاون مع ولي الأمر والقائمين على الأمن في التصدي لكل من يتبنى أفكاراً ضالة، أو يمارس سلوكاً يخل بأمن الوطن أو يسيء إلى مبادئه ووحدته؛ فإن الأمن نفيس لا يصح التهاون فيه بأي حال من الأحوال.

انتهاء المجازرة العاشرة

المحاضرة الحادية عشر الْقَوْمِيَّةُ وَالْعُنْصُرِيَّةُ

مقدمة:

تعد القومية والعنصرية من أهم النزعات الاجتماعية التي ربطت الإنسان منذ القدم بجماعته، بحيث اعترز بالانتماء إليها، وحمائيتها، والذب عنها بنفسه وماله، وأخلص الولاء لها، والخضوع لمبادئها وتقاليدها دون قيد أو شرط، وتبعها تبعية مطلقة دون إعمال لعقل أو قيمة من القيم. وهي وإن كانت ربطت الإنسان في المجتمعات بعشيرته أو قبيلته أو قومه، أو من يلتقي معهم على مصالح معينة، إلا أنها من أشد النزعات التي أثارَت الكراهية والبغضاء بين الناس. وأهدرت حقوق الإنسان، وصادرت كرامته وحرية، وحرمتته من العلاقات الإنسانية الكريمة القائمة على المساواة بين الناس في القيمة الإنسانية، والعدل بينهم، والتعاون بينهم فيما يحقق الخير للجميع، ويُمكن من حياة آمنة مطمئنة.

مفهوم القومية والعنصرية:

في اللغة:

أ- **القومية:** من القوم، وهم الجماعة من الناس، تجمعهم جامعة يقومون لها، وقوم الرجل عصبته، وهم أقاربه من أبيه، أو قومه الذين يتعصبون له، وينصرونه.
ب- **العنصرية:** من العنصر، وهو الأصل والحسب، والعنصرية تعني تعصب المرء أو الجماعة للجنس.
في الاصطلاح: هي شعور قوي لدى جماعة بالانتماء إلى أسرة القوم أو العنصر، والاعتزاز بها، ينشأ عنه ولاء وارتباط يتحكم في عقول أفراد هذه الجماعة وسلوكهم؛ بحيث يصبحوا يداً واحدةً على من سواهم، ينتصرون لبعضهم، ويسألون عليها غيرهم ويعادونهم، ويبنون عليها آراءهم وأفكارهم ومواقفهم ونظام حياتهم.

تاريخ القومية والعنصرية:

عرفت المجتمعات البشرية ألواناً من السلوكيات التي احتقرت الإنسان وامتهنته، نشأت عن عقائد ضالة، ومذاهب فاسدة، وأنظمة اجتماعية منحرفة.

- كان اليونان يسمون المجتمع إلى طبقات اجتماعية متفاوتة في الحقوق المدنية، يونان، وهم : سكان مدينتي أثينا وإسبارطة، ولهم جميع الحقوق المدنية، وموالي ليس لهم حق في كثير من الحقوق، ورفيق محرومون من كل الحقوق، كما أن قدماء اليونان كانوا يعتقدون أنهم وحدهم كاملو الإنسانية، زدودوا بقوى العقل والإرادة على حين خلقت الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية.
- واعتز الرومان بأرومتهم، ورأوا أنهم أرقى أهل الأرض عنصراً، وأنهم أعظمهم مدنية وثقافة، وكانوا يلقبون الشعوب الخاضعة لهم بالبرابرة، وكان مبدؤهم يقوم على تقديس الشعب الروماني، وأن الشعوب الأخرى لا تستحق أن تحكم نفسها بنفسها، وحسبها خدمة العنصر الروماني الرفيع.
- واعتقد الأكاسرة ملوك فارس أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكانت الرعية تنظر إليهم على أنهم آلهة، يعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً، كما كان المجتمع الفارسي طبقياً يصنف الناس على أساس النسب والحرف، بين كل طبقة وأخرى هوة واسعة، لا تصل بينهما صلة، وعلى كل فرد أن يقنع بمركزه الذي منحه إياه نسبه، فليس له أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلق لها، وكان أهل فارس يقدسون قوميتهم، ويرون لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم.

خضع المجتمع الهندي آلاف السنين لنظام اجتماعي لم يعرف التاريخ أشد قسوة منه على الإنسان، يركز على قاعدة المحافظة على السلالة الآرية ونجابتها، مكوناً تفاوتاً طبقياً بين أفراد المجتمع الواحد متنوعاً إلى أربع طبقات هي:

- **البراهمة:** وهم طبقة الكهنة ورجال الدين، ويعتقد أنهم خلقوا من فم الإله.
- **الكشتر:** وهم الجند ورجال الحرب، ويعتقد أنهم خلقوا من ساعد الإله.
- **الويش:** وهم أهل الصناعة والتجارة والزراعة، ويعتقد أنهم خلقوا من فخذ الإله.
- **الشودر:** وهم الطبقة الدنيا، يعملون في خدمة الطبقات السابقة، ويعتقد أنهم خلقوا من قدم الإله.
- وقد منح هذا النظام الذي وضعته الكتب الدينية الهندوسية طبقة البراهمة امتيازات عجيبة، فقد جعلتهم صفوة الآلهة، وملوك الخلق، وسادة الأرض، في حين أهانت طبقة الشودر (المنبوذين).
- وزعم اليهود أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الإسرائيلي يعتبر عند الله أكثر من الملائكة، وأن ما عداهم من البشر ليسوا إلا كالحوانات، وإنما خلقوا على صفتهم حتى لا يتوحشوا من خدمتهم. وجاءت الحركة الصهيونية لتؤكد نظرة اليهود إلى غيرهم من الأمم، وهي نظرة ازدراء وكرهية، وتوضح هذه النظرة في استعلائهم عنصرياً، والزراية بغيرهم ممن يسمونهم: (الجوييم) أي: الأميين. جاء في البروتوكول الحادي عشر: (إن عقل الأمم - لكونه ذا طبيعة بهيمية محضة - غير قادر على تحليل أي شيء، فضلاً عن التكهن بما قد يؤدي عليه امتداد حال من الأحوال إذا وضع في ضوء معين؛ وهذا الاختلاف التام في العقلية بيننا وبين الأميين، وهو الذي يمكن أن يرينا بسهولة آية اختيارنا من عند الله، وأنا ذوو طبيعة ممتازة فوق الطبيعة البشرية حين تقارن بالعقل الفطري البهيمي عند الأميين).

▪ كما أن الكتاب المقدس في النصرانية رسم صورة عريضة لحدود طاعة ما يعرف بالعبيد لسادتهم واستجلاب رضاهم؛ مما يوحي بنظرته للنظام الطبقي المتبع آنذاك، ويدل كذلك على أن النصرانية اصطفت بصيغة الرومان. وعرف العرب في الجاهلية فكرة القومية باسم العصبية؛ فكانت القبيلة أو العشيرة هي الوحدة السياسية والاجتماعية التي يعيش أفرادها في إطارها، وتحت ظلها، ويخلصون الولاء لها، ويخضعون لتقاليدها، يعبر عن ذلك منطلق الشاعر الجاهلي:

لا يسأون أخاهم حين يندبهم للننابات على ما قال برهانا

▪ وفي أوروبا لم تكتمل القومية إلا في القرن الثامن عشر الميلادي بعد أن فقدت الكنيسة الكاثوليكية نفوذها على إثر قيام حركة مارتن لوتر الإصلاحية وظهور الكنيسة البروتستانتية المتحررة؛ حيث تشكلت فكرة القومية على أساس المصالح القومية دون اعتبار للدين في تشريعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وظهرت اليوم آثار العنصرية في استعلاء الجنس الأبيض على الأسود في صورة مختفية وراء السياسات العنصرية وأساليب التعامل المهينة والاتفاقيات المجحفة في حق اقتصاد الشعوب الملونة والسوداء. وفي حالة التخلف العلمي والفقر والإهمال وانتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة التي لا تزال تعاني منها هذه الشعوب، وتدوق مرارتها على مرأى ومسمع العالم بأسره. في ضوء هذه التصورات والفلسفات المتراكمة على مر العصور تطلع الإنسان إلى منهج يعالج هذه المشكلة التي عانى فيها من ظلم أخيه الإنسان واستعلائه عليه وحرمانه من حقوقه الأساسية، ومصادرته لحرية، واستغلاله لثرواته دون وجه حق أو لأسباب مكتسبة.

تعريف العصبية:

في اللغة: من عَصَب القوم به عصباً أي: اجتمعوا حوله، وتعني: المحاماة والمدافعة عن يلمك أمره، وتلزمه لغرض. **في الاصطلاح:** هي رابطة استعلاء تقوم على التعصب الطبقي والعنصري والتمييز بين الناس على أساس اللون أو النسب أو الثروة أو الجاه، تؤدي إلى إهدار كرامة المخالف والزرارية به وسلبه حقوقه الإنسانية أو بعضها. وبهذا المعنى تكون الطبقيّة والعنصرية من أنواع العصبية التي عرفتها المجتمعات البشرية.

أنواع العصبية:

- **عصبية اللون:** تقوم على أساس افتراض وجود دم أزرق نبيل، وآخر دم أحمر وضع، وعلى تقسيم الناس إلى أقسام حسب لون بشرتهم بيضاء كانت أو سوداء، يستغل بها الأبيض أخاه الأسود، ويمتدحه لونه بشرته. يقول (شارل دي مونتيسكيو) في كتابه روح القوانين: (وما شعوب إفريقية إلا جماعات سوداء البشرة من أخص القدم إلى قمة الرأس، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن ترثي لها، وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحاً - أو على الأخص روحاً طيبة - في جسد حالك السواد). ولا ريب أنه عندما يسود في مجتمع ما منطق احتقار الإنسان على أساس لونه، ويتم تصنيف أفرادها في طبقات متفاوتة بسببه فإن ذلك يدل على جهل هذا المجتمع وشقائه.
- **عصبية الطبقة:** تنشأ روابط اجتماعية بين الناس كرابطة الأسرة، أو رابطة المهنة أو رابطة السكنى بين أهل الحي أو القرية. وتقوم روابط أخرى على أساس التقارب في المراتب والمنازل؛ فقد كانت قريش قبل الإسلام تفرض لنفسها مرتبة خاصة وحقوقاً وتقاليد محددة خلاف سائر العرب. وفي المجتمع الفارسي تفاوتت الطبقات على اعتبار النسب والحرف، كما تمايزت في الهند الطبقات الأربع في الوظائف، وانقسم المجتمع الروماني إلى طبقات هي: طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين وطبقة العامة الذين هم غالب الشعب.
- **عصبية القوم والعنصر:** تقوم على تفضيل قومية على غيرها، وعنصر من العناصر البشرية على آخر، فيزعم أن هذه القومية أرقى، وأن هذا العنصر أذكى وأنقى، وقد عبر (أرسطو) عن النزعة العنصرية التي حكمت المجتمع اليوناني. ويلتقي الفكر الاستعماري مع النزعة العنصرية التي تزعم تفوق الجنس الآري في الصفات العقلية والروحية، وأنه النبع الأوحده للحضارة، وإلى هذا الجنس ينحدر المفكرون والمخترعون والعلماء الذين حملوا مشعل الحضارة. وقد صدرت مؤلفات لدعم هذه الفكرة: منها كتاب ((عدم المساواة بين الأجناس)) للكونت جوزيف جوبينو. وكتاب ((تاريخ اللغات السامية)) لأرنست رنان: الذي قرر فيه أن الجنس السامي دون الجنس الآري.

موقف الإسلام من عصبية القومية والعنصرية:

لا يرفض الإسلام العصبية القائمة على الحق، والانتصار للعدل والفضيلة، كما أنه لا يعترض على الانتماء إلى القبيلة لإثبات نسب، أو إلى قومية معينة كوحدة اجتماعية، يشاركها مشاعرها، ويذب عن حقوقها ومكافئها. ولا ينفي الإسلام كذلك حق الإنسان في حب وطنه وعشيرته والحنين إليهم مرتقياً به من التعلق بالأرض والموقع الجغرافي لذاتهما إلى القيمة والمكانة والحرمة؛ وقارناً لها بالمبادئ والقيم التي يؤمن بها من يقيم على هذا الوطن. لقد أظهر الرسول ﷺ هذا المعنى في خطابه لمكة، وهو مهاجر منها: ((ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولو لا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)). إن هذا المعنى يجلي موقف الفطرة في محبته ﷺ لبلده مكة، معللاً هجرته منه رغم تعلقه به ومحبته له بإخراج كفار قريش له، ومنعهم إياه من إقامة مبادئ الإسلام فيه. ولا يلغي الإسلام فضل قومية بعينها؛ لكنه يضع منها ما كان سائداً في المجتمعات من الفخر بالأنساب والأحساب، والتعالي بسببها على الناس وأعرافهم. كما لا يتنكر الإسلام الأنساب، فالناس معادن مختلفة كما قال الرسول ﷺ: ((تجدون الناس معادن؛ فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)). ولكنه يحرم التفاخر بها، والتباهي بمكافئ الأبناء؛ فيجعل من كان تقياً غير نسيب أكرم عنده من نسيب فاجر؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾. ويقول الرسول ﷺ: ((ومن أبطنأ به عمله لم يسرع به نسبه)).

أنواع العصبية في الإسلام:

إن العصبية في نظر الإسلام نوعان:

الأولى عصبية مهدوحة، وهي محاماة الإنسان عن قومه إذا كانوا على حق، وهي مقصود الرسول ﷺ في قوله: ((خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يآثم))، وقوله ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)). قال: يا رسول الله! هذا نصره مظلوماً، فكيف نصره ظالماً؟ قال: ((تأخذ فوق يديه)).

والأخرى عصبية مذمومة، وهي التي كانت معروفة في الجاهلية، تقوم على الفخر بالأنساب، وعدّ مآثر الآباء، وقد وصفها القرآن الكريم بحمية الجاهلية في قوله ﷻ: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾. وبين الرسول ﷺ سبب ذمها، وهو محاماة الإنسان عن قومه مع أنهم على ظلم؛ فعن واثلة بن الأسقع، قال: قلت: يا رسول الله ما العصبية؟ قال: ((أن تعين قومك على الظلم)). وقد أبطل الإسلام هذه العصبية لما فيها من تكبر على الناس، واستطالة عليهم بنخوة القبيلة والقراية، وأقام مكانها عصبية الانتصار للحق والعدل والإخوة في الدين، جاعلاً معيار التفاضل بين الناس العمل الصالح والعلم النافع. قال الرسول ﷺ: ((إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقى، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب)). فصارت المكانة المشروعة مشاعة يرتقي إليها كل من كان أهلاً لها من أهل العلم والعمل مهما كان نسبه وعنصره ولونه، ومهما كانت طبقتهم؛ لذا كانت المساواة بين الأجناس من مآثر الإسلام التي امتاز بها. يقول المؤرخ الفيلسوف (Toynbee) في كتابه: ((الحضارة في الامتحان)): إن القضاء على الفوارق السلالية والعصبية الجنسية والدموية من أعظم مآثر الإسلام ومفآخره، أما العصر الحالي فإن الشعوب الناطقة بالغة الانجليزية قد حققت بعض النجاح في ربط الشعوب بعضها ببعض، وعادت على العالم الإنساني بخير ورحمة، ولكن الحقيقة الراهنة التي يجب الاعتراف بها أنها أخفقت في القضاء على العواطف السلالية والجنسية.

انتهاء المحاضرة الحادية عشر

المحاضرة الثانية عشر

اللغة العربية وعاء التعليم والثقافة

مقدمة:

حباً للمولى ﷺ اللغة العربية بوضعية قلماً نجدتها في اللغات الأخرى؛ فإلى جانب لغة فطرية يتواصل أصحابها بالاكْتساب والتعلم فهي لغة كتابه ﷺ الذي حفظه في اللوح المحفوظ إلى يوم الدين. ويتضح ذلك في اختلافها عن تلك اللغات المنتشرة المشهورة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية. وهذا الاختلاف يتجسد في ثلاثة جوانب:

أولها: أن العربية لها امتداد تاريخي ليس لهذه اللغات؛ بمعنى أنها استمرت منذ الأدب الجاهلي حتى الآن دون أن تتعرض لتغيير ((نوعي)) كاللغات الأخرى، ولا يجد العربي المعاصر عناءً في الاستجابة لأدب العرب القدماء.

ثانياً: أن هذه اللغة ترتبط ارتباطاً عضواً بالإسلام، يبدأ هذا الارتباط بالقرآن الكريم ثم يمتد في الحديث الشريف، والتفسير، والفقه والتاريخ وغير ذلك من جوانب الحياة الإسلامية، فالإسلام يكون النواة الثقافية للعربية الفصيحة، ونحن حين نطلق مصطلح ((العربية الفصيحة)) إنما نطلقها بهذا المعنى، وهذا من أهم الجوانب التي لا بد من حسابها عند النظر في تعليمها.

ثالثها: أن هذه العربية الفصيحة لها تراث هائل في الدرس اللغوي لا نعرف له مثيلاً أيضاً في اللغات الأخرى؛ فمنذ القرن الثاني الهجري والعلماء يتلاحقون واحداً في إثر واحد يدرسون جانباً من العربية، في الأصوات، وفي الصرف، وفي النحو، وفي المعجم، فتكون لدينا هذا التراث الضخم في وصف العربية.

بداية دراسة اللغة العربية:

وعلى الرغم من الامتداد التاريخي للعربية منذ العصر الجاهلي فإنه لم يتفق حتى الآن بين علماء اللغة حول البداية الفعلية لدراستها والاهتمام بها في النواحي البحثية والعلمية. ويرى البعض أن الاهتمام بدراسة العربية بدأ مبكراً، ربما في عصر الصحابة ﷺ والتابعين. وتؤرخ كثير من الروايات ذلك الاهتمام بالتابعي أبي الأسود الدؤلي تلميذ الإمام علي ﷺ؛ حيث تشير كثير من الروايات إلى أن الإمام وجهَ نَظراً أبي الأسود إلى الاهتمام ببعض مسائل العربية. وأياً ما كان الأمر فإن أبا الأسود يعدُّ بحق مؤسس الدراسة اللغوية عند العرب.

أهمية اللغة العربية:

وقد اعتبر كثير من العلماء أن العروبة هي اللسان وأن الكلام بغيرها لغير حاجة يخشى أن يورث النفاق وأبرز هؤلاء:

- ابن تيمية الذي يقول: إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون.
- كره الشافعي لمن يعرف العربية أن يتكلم بغيرها، أو يتكلم بها خالطاً لها بالعجمية، وكان يؤكد على أن كل من يقدر على تعلم العربية فإنه ينبغي عليه أن يتعلمها لأنها اللسان الأوّل بأن يكون مرغوباً فيه.

كما اعترف كثير من المستشرقين بأهمية اللغة العربية وتميزها ومن أبرز هؤلاء:

✓ يقول العلامة كارل بروكلمان: بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية وحدها هي اللسان الذي أحل لهم أن يتعلموه في صلواتهم. وبهذا اكتسبت العربية من زمن طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى التي تنطق بها شعوب إسلامية.

✓ يقول المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون المعروف بكتاباتهِ المغرصة غير المنصفة عن الإسلام والمسلمين: ((اللغة العربية لغة وعي، ولغة شهادة، وينبغي إنقاذها سليمة بأي ثمن للتأثير في اللغة الدولية المستقبلية، واللغة العربية بوجه خاص هي شهادة دولية يرجع تاريخها إلى ثلاثة عشر قرناً)). كما أن أهميتها تنبع من كونها ذات قدرة كبيرة على تذليل الصعاب وقوة واضحة في مجابهة الحياة وأنها تتمتع بقدرة فائقة على استيعاب كل جديد من العلم والحكمة والفلسفة وأنواع المعرفة الأخرى، وهي تتمتع كذلك برسوخ في الأصول وحيوية في الفروع.

خصائص اللغة العربية:

إن اللغة العربية لغة غنية ودقيقة تمتاز بوفرة هائلة في الصيغ وهذا ناتج عن طبيعتها التي تختلف عن أية لغة أخرى وخصوصاً وأنها من أقوى اللغات السامية الأخرى من حيث التطور شكلاً ومضموناً صوتاً وكتابةً وملائمة لتطورات الواقع ويتضح ذلك من خلال الخصائص الآتية:

- أصوات اللغة العربية تستغرق كل جهاز النطق عند الإنسان وتخرج من مخارج مختلفة تبدأ بما بين الشفتين في نطق حروف كالباء والميم والفاء، وتنتهي بجوف الناطق في نطق حروف المد: الألف والواو والياء التي تخرج من الصدر والحلق إلى خارج الفم.
- اللغة العربية صنعت قانونها بنفسها: فإذا تكلم ذو بيان فإنك تطرب لسماعها، وتفهم بيانها، وترتاح لتبيانها.
- اللغة العربية لغة مرنة: ويظهر ذلك من طواعية الألفاظ للدلالة على المعاني وطواعية العربية تتمثل أكثر ما تتمثل في ظاهرتي الترادف والاشتقاق بصفة خاصة، وفي قدرتها على استيعاب المؤنث والمؤنث والدخيل بصفة عامة.
- قدرة العربية على الوفاء بمتطلبات العصر: ينبغي أن ننظر إلى اللغة العربية على أنها إحدى اللغات العظمى في العالم اليوم فقد استوعبت التراث العربي والإسلامي، كما استوعبت ما نقل إليها من تراث الأمم والشعوب ذات الحضارات الضاربة في القدم كالفارسية، واليونانية، والرومانية، والمصرية وغيرها.
- اللغة العربية بين التعبير الأدبي والتعبير العلمي: اللغة العربية لغة مرنة طبيعة. فيها الأسلوب الأدبي الإنساني ذو الدلالة الواسعة، وفيها الأسلوب العلمي ذو الدلالة المحدودة الصارمة.
- اللغة العربية لغة كاملة: إن الكثير من الباحثين اللغويين يرى أنه لا توجد لغة جامدة أو قاصرة أو ((بدائية))؛ وإنما يوجد قوم ((بدائيون)) أو جامدون، فاللغة أية لغة - فضلاً عن أن تكون العربية - قادرة دائماً على التطور والنمو واستنباط المفردات والتراكيب التي تلائم الحاجات الجديدة والمخترعات الجديدة لدى أهلها. فإذا لم يكن لدى أهلها حاجة إلى اختراعات جديدة أو استعمالات جديدة فإن اللغة تبقى كما هي، وعلى هذا فعدم نمو اللغة - أية لغة - ليس نقصور في طبيعتها أو ذاتها، وإنما نقصور وجمود أهلها.

تَميُّزُهَا عن بَقِيَّةِ اللُّغَاتِ:

- تميزت العربية عن بقية اللغات بميزات في ألفاظها وقواعدها وتراكيبها في الآتي:
1. أشار الباحثون إلى أنها أكثر اللغات اختصاصاً بالأصوات السامية؛ فقد اشتملت على الأصوات جميعها وزادت عليها أصواتاً كثيرة لا وجود لها في اللغات الأخرى، مثل أصوات (التاء والذال والظاء والغين والضاد).
 2. تميزت بأنها أوسع اللغات وأدقها في قواعد النحو والصرف، وأنها تمتلك ثروة هائلة في أصول الكلمات والمفردات.
 3. تتميز بخصائص ربما تنفرد بها ومنها (الإعراب والغنى بالمفردات والتراكيب والمفاهيم والإيجاز والشمول والدقة والموسيقية). ومن الملاحظ أن ذلك يدل على احتفاظ اللغة العربية بمقومات اللسان السامي الأول دون منازع فضلاً عن النواحي الإعرابية والسمات الأسلوبية، بالإضافة إلى تفوقها في أصول المفردات والكلمات من حيث الوفرة.

وَظَائِفُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ:

- إن اللغة العربية بهذا التميز وبهذا الرصيد التاريخي والواقعي لم يكتب لها النجاح لولا الوظائف المتعددة التي تقوم بها هذه اللغة وأهمها:
- أنها وسيلة الإنسان العربي في التفكير فنحن عندما نذكر نستخدم الألفاظ والجمل والتراكيب العربية في كلامنا وكتابتنا، وبمعنى آخر إن تفكيرنا حديث عربي صامت وحديثنا تفكير عربي صائب.
 - أنها تحمل مبادئ الإسلام السليمة بحكم أنها لغة القرآن الكريم.
 - أنها تعمل على تاصيل العقيدة الإسلامية؛ فهي تحمل إلى المتكلمين بها هدى القرآن وهدى رسول الله ﷺ في قوالب رصينة محكمة؛ فالعلاقة وثيقة جداً بين العربية والعقيدة الإسلامية.
 - أنها مَقَوِّمٌ من مقومات الأمة العربية الواحدة؛ فهي توثِّقُ شخصية الأمة، وتؤكدُ هويتها وتشكل أداة للاتصال بين أبناء هذه الأمة.
 - أن العربية لا تدرس ولا تعلم لذاتها بل هي وسيلة المتعلمين جميعهم لتعلم سائر المواد الأخرى.
 - أنها الوسيلة المثلى لحفظ التراث الثقافي العربي.
 - وأهم وظيفة يمكن أن تقوم به العربية وتؤديها خير تادية هي الوظيفة الحضارية الإنسانية تلك الوظيفة التي مهدت لحضارة الإسلام أن تعم أفاق الدنيا؛ حيث جمعت الحضارة كل الأعراق والأجناس وبالتالي صارت مقوماً من مقومات الأمة الإسلامية التي هي أكثر شمولاً من الأمة العربية فضلاً عن كونها إنسانية لأنها تخاطب الإنسان في فكره ووجدانه وبالتالي فهي متصالحة مع هذا الإنسان مادام الإنسان يتقوى بها لغة وثقافة وسلوكاً وأدباً.

اللغة العربية: الموقع الاستراتيجي في الدفاع الحضاري:

إن اللغة العربية باعتبارها وعاءً للثقافة العربية وللحضارة الإسلامية فإنها تواجه أخطاراً تتفاقم باطراد تأتي من هيمنة النظام العالمي الذي يرفض صياغة العالم الجديد وفق خصوصيات الشعوب وثقافتها وأعرافها وتقاليدها. وإن موقع اللغة العربية في الصدارة من الهوية للدفاع عن الأمة، فما اللغة إلا وعاء الفكر الذي يصنع طرائق المواجهة، بالتكيف حيناً، وبالتصلب حيناً. وبالرغم من وسائل التهجين والتدجين لهذه اللغة فإنها استعصت على التدجين والموت لأنها اللغة الوحيدة للوحي الإلهي الباقي على ظهر الأرض، وبقاؤها هو إكسير الحياة للأمة، والمجدد الدائب لطاقتها الأدبية والمادية. يقول العلامة الجزائري الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مخاطباً الجزائريين الذين عمل الاستعمار الفرنسي بكل الوسائل على جعل اللغة غريبة في أفواههم سمجة على ألسنتهم منكورة في قلوبهم وأفئدتهم: ((لولا تكن اللغة العربية لغة مدينة وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عرباً يعقولون فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته)). لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون. قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة. واللغة العربية هي التي أفاضت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقتها وأسرارها، وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا في كل علم وبحثوا في كل فن وملؤوا الدنيا مؤلفات ودواوين. ومن هنا ندرك أن الحديث لإصلاح وضع اللغة في المنظومة المعرفية للأمة ليس ترفاً فكرياً بقدر ما هو حديث عن بناء حضاري متكامل باعتبارها جزءاً جوهرياً في مشروع التجديد والإصلاح والتمهيد للنهضة المرجوة، ولا يمكن أن تحصل نهضة حقيقية بغير نهضة لغوية متزامنة مع المشروع كله، وخادمة له سواء من ذلك ما يتعلق بتأصيل الفهم والتلقي للخطاب اللغوي من الوحي خصوصاً، ومن التراث العلمي الإسلامي عموماً، أو ما تعلق بالبلاغ والتواصل التعبيري المرتبط بالمفاهيم المكونة لهوية الأمة على الإجمال. واللغة العربية لم تكن يوماً نافلة في مجال الدفاع الحضاري، وساحة الصراع الإيديولوجي إلا عند من لا يفقه سنن المغالبة بين الأمم والشعوب، بل كانت ولا تزال من أهم مواقع الصراع الفكري، ومن أخطر أسلحة الاحتواء الاستراتيجي لثقافات الشعوب وتمييعها لإخراجها عن طبيعتها وصبغتها. ولا بد من أن ندرك أن تفعيل الثقافة رهن بتطور اللغة، ونمو اللغة يعكس القيم الثقافية للمجتمع الذي يتكلم بها، وهما مقياس لإمكانته وقدراته، وكيف نعرف هذه القيم عندما تختفي دلالات اللغة، وتغيب معانيها ومراميتها وإشاراتنا في حديث الناس وبرامج الإعلام وإعلانات الشركة وأسماء المحال ويافطات الإشهار.

اخترق الهوية وصدمة العولمة:

التحدي الذي يواجه الهوية اللغوية في عصر الصدمة العولمية مرده إلى الشعور المبالغ فيه بأهمية اللغة الأجنبية، الناتج غالباً عن الانبهار بكل ما هو أجنبي، والظن الزائف بأن التقدم لا يأتي إلا عن طريق إتقان اللغة الأجنبية للجميع، بل والتحدث بها بين العرب أنفسهم. ويمكن أن نحصر مظاهر الصدمة العولمية في ميدان اللغة في العالم العربي في ثلاث مستويات:

المستوى الأول: هو المستوى الشعبي؛ حيث:

- 1- التداول بالإنجليزية في الحياة اليومية. 2- كتابة لافتات المحلات التجارية. 3- كتابة الإعلانات والإشهارات.
- 4- كتابة قوائم الطعام في المطاعم.

المستوى الثاني: المستوى التقني في عصر الرقمنة المتطورة؛ حيث إن مشكلة الإنسان العربي المعاصر تكمن في أنه لا يستطيع أن يستورد حلولاً للتغلب على كثير من التحديات؛ فلن يُترجم له العالم الخارجي المعارف إلى العربية، ولن يقترح له برامج إصلاح لغته، أو وسائل صنع المعارف بها.

التحدي الأول: لغة بلا ذخيرة معرفية: يعيش العالم العربي في كوكب آخر بعيد كليةً عن مشاريع بناء الذخائر الرقمية المعرفية التي أضحت مركز العلم والمعرفة في عالم اليوم في كل المجالات العلمية والتقنية، وفي معظم الحقول الثقافية والعملية، تمتلك اللغات (عدا العربية) اليوم قاعدةً تحتيةً معرفيةً رقميةً متعددة الوسائط دخلت صناعة المعارف فيها سباقاً يومياً.

التحدي الثاني: لغة تعاني من سرطان الترجمة: كثير من عيون الكتب العالمية لم تر النور بعد بالعربية! معظم أمهات الكتب الحديثة التي تشكل نبراس الحضارة المعاصرة غير معروفة بالعربية التي كانت في العصر العباسي لغة الحضارة الكونية بفضل حملة الترجمة الواسعة إليها للكتب الأجنبية في شتى المجالات من فلسفة ومنطق وطب وفلك ورياضيات وأدب، من مختلف اللغات الإغريقية والسريانية والفارسية والسانسكريتية والحبشية... التي أغنتها بروافد فكرية وكلمات ومصطلحات كثيرة.

التحدي الثالث: لغة لم تكمل بعد بناءها التحتي الرقمي؛ حيث لا يوجد حتى اليوم قارئ ضوئي آلي لأحرف اللغة العربية يستحق أن يحمل هذا الاسم، رغم امتلاك اللغة الفارسية ذات الأحرف الشبيهة لذلك القارئ الضوئي! يُشكّل عدم تصميم برمجية قارئ ضوئي عربي حتى الآن عائقاً كبيراً يمنع دخولها عصر الرقمنة. وتفتقر العربية أيضاً إلى برمجيات كمبيوترية مناسبة لتصحيح نصوصها قبل وضعها على الإنترنت وللبحث عنها فيه. الموضوع خطير في الحقيقة لأن صفحات الإنترنت بالعربية (لاسيما منتديات الدردشة والحوارات، وصفحات الأخبار والتعليقات العامة على الأحداث اليومية والكتابات...) ملطخة بأدغال وأعداد فلكية من الأخطاء اللغوية والإملائية التي لا تخطر ببال. ويكفي معرفة أن عدد الكتب التي رقمها مشروع غوغل في عام 2007 فقط، مليون كتاب، في حين أن ((مشروع الذخيرة العربية)) الذي تدعمه الجامعة العربية بميزانية خاصة منذ 1975، لم يُرقم حتى الآن إلا 230 كتاباً.

المستوى الثالث: هو مستوى الخطاب الرسمي: لأن الخطاب فيه من أقوى المؤثرات في وسائل الإعلام الحديثة، وربما في كل العصور وفي جميع البلدان؛ فالمسؤول مهما كانت صفته ومرتبته يؤثر على سامعيه ومشاهديه بنطقه وصوته وقصاحته إذا تفصح ولحنه إذا لحن.

نحو أداء أفضل للغة العربية:

- ❖ اللغة العربية تحتاج إلى مراجعة مستمرة تستهدف اكتشاف التحولات التي تطرأ على برامجها وأنظمتها المختلفة بهدف رصد استجاباتها، واتخاذ التدابير اللسانية الكفيلة بمواجهة المخاطر التي تجابهها.
- ❖ وضع مشروع متكامل يضع في الاعتبار مطالبة الأجيال الحاضرة بالالتزام بالحد الأدنى من أساليب اللغة وجمالياتها، مع بذل الجهد المتواصل لملاحقة التطورات التقنية، وإيجاد خطط عملية ممكنة وقادرة على مواجهة المخاطر المحدقة لنتثبت أن اللغة العربية.
- ❖ ولوج عالم الفضائيات بثقل لغوي يصنع اللسان القويم، وينشئ الإحساس بالعزة عند التحدث بالعربية، فقد باتت الفضائيات اليوم مكوناً أساساً من مكونات قوى التحول اللغوية التي تملك القدرة على فرض استجابات وتوجهات في عقول المشاهدين وسلوكهم ومواقفهم، كما أن لها دوراً تخريبياً يكمن في ما تفرضه على برامج المشاهدين اللغوية والفكرية من أنماط لغوية.
- ❖ إبطال المغالطة التي ترى أن العربية عاجزة عن إبرام العقود والصفقات والإشهارات الترويجية؛ ذلك أن الانحياز الاقتصاد المطلق للإنجليزية بوصفها لغة تداولية وإقصاء العربية يتضمن تبعية شاملة تؤذن بخراب العمران اللغوي وتبشر بالتبعية والاعتراب.
- ❖ دعوة وزارة التربية والتعليم في كل بلد عربي للعمل على تعميم فكرة إنشاء مدارس ابتدائية تعتمد فيها اللغة العربية لغة وحيدة للتواصل في هذه المدرسة دون أي استخدام للعامة طوال اليوم المدرسي، داخل الصف وخارجه.
- ❖ إن ثمة ربطاً مطرداً بين تقدم اللسانيات الحاسوبية العربية ومنجزاتها وتقدم العربية وتهيئتها لمستقبل أفضل، وذلك أن تعريب الحاسوب وملحقاته ومعداته سيكفل توفير برامج عربية صالحة لبناء مجتمع المعرفة المنشود.

ويظهر أن هناك عوامل تجعل من هذا التعريب قضية مصيرية وتسهل تعميمه؛ منها:

- استخدام كثير من الشعوب للتعريب العربي (باكستان، إيران...).
- النشر الإلكتروني باللغة العربية.
- الاستفادة مما تزرع به الشبكة العالمية من مواقع لتعليم اللغة الإنجليزية وتعلمها لناطقين بها ولأجانب، وتطوير مواقع مشابهة لخدمة اللغة العربية وتعليمها.
- نشر العربية في الخارج وذلك بافتتاح المدارس العربية التي تعني بتدريس العربية والثقافة الإسلامية، وشد الجاليات المسلمة إلى التراث العربي، وتقديم المنح للطلبة الراغبين في تعلم العربية ونشرها.
- اشتراط إتقان اللغة العربية للعمالة الوافدة إلى البلدان العربية وخاصة بلدان الخليج العربي التي أصبح الهندي فيها مثلاً يفض منكم لأنك لا تفهم لغته الهندية.
- اشتراط ترجمة كل ما يكتب على البضائع المستوردة إلى اللغة العربية، وعداً هذا المطلب شرطاً للتعامل التجاري مع الشركات والدول المصدرة.

ومما يجب على الطلبة أن يفعلوه ما يلي:

- تنظيم أوقاتهم بما يسمح لهم بزيارة المكتبات والتزود بالمعرفة الضرورية لهم.
- الابتعاد عن وسائل الإعلام الضارة والتي تؤدي آثارها إلى الإخلال بالمجتمع ككل.
- المشاركة في الأنشطة التي تساعد على تنمية ثقافتهم الشخصية.
- الاعتزاز باللغة العربية وعدم استخدام لغات أخرى في الحديث إلا للضرورة.

الأسس العلمية لبناء منهج نعلج اللغة العربية:

1. يجب أن يراعي هذا المنهج التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، مع الاهتمام ببيان مركز الإنسان في الكون ووظيفته في الحياة.
2. يجب أن يراعي في بنائه أيضاً طبيعة التلميذ في كل مرحلة، ومتطلبات نموه العقلي والنفسي والجسمي والاجتماعي، وكيف تسهم اللغة في عملية التنمية الشاملة المتكاملة لشخصية المتعلم وتكوين سمات الإنسان الصالح فيه.
3. يجب أن يراعى المنهج أيضاً منطق مادة اللغة العربية وخصائصها التي لا بد من أخذها في عملية التعلم، ووظائفها التي لا بد من العمل على تحقيقها.

كيف نحافظ على اللغة العربية بين الطلاب:

لا شك في أن اللغة العربية هي قلب الهوية القومية والوطنية وروح هذه الأمة.. والولاء لهذه اللغة يأتي من باب الانتماء لهذه الأرض وثقافتها ولغتها لغة القرآن الكريم فهي لغة حضارة ولسان مشترك يجمع بين أكثر من مليار مسلم في شتى أنحاء الكرة الأرضية.. ولغتنا اليوم تمر بمرحلة غاية في الخطورة بهدف تهميشها والتقليل منها رغم أنها لغة الإبداع والابتكار والتطور والاختراع. وما يحدث اليوم للغة العربية هو نفس المخطط بل أخطر مما حدث في أيام الاستعمار خاصة بعد أن تحول التعليم في المدارس والجامعات إلى اللغة الإنجليزية. إن توسيع مصادر تعلم اللغة العربية لتتجاوز الصف والكتاب المدرسي هو السبيل الوحيد لتطوير مهارات الطالب في الاستماع والحديث بالعربية المعاصرة، فضلاً عن أن الكتاب المدرسي يجب أن يتخطى الشكل الورقي البحت ويستفيد من إمكانيات ثقافة الصورة والحاسوب. إن إعداد مقررات اللغة العربية لغير المتخصصين بها هو الوسيلة الحقيقية لإبقاء صلة الطالب الجامعي باللغة العربية وإكسابه المهارات الأساسية. إن تعلم لغة أجنبية وإجادتها ضرورة في عصرنا ولكن هذا لا ينبغي أن يتم على حساب اللغة القومية.

الطلبة العرب ودورهم في الحفاظ على الثقافة العربية:

ومما يجب لهم من حقوق ما يلي:

- ✓ التنشئة السليمة من الأهل منذ الصغر على حب وتعظيم الثقافة العربية.
- ✓ توفير كافة الوسائل التعليمية والإرشادية لهم وإتاحتها دون.
- ✓ وضع مناهج دراسية وطرق تعليمية تعطي للطلبة الفرصة للتزود بالمعرفة خارج نطاق المنهج الدراسي المقرر.
- ✓ إضافة مناهج لتدريس اللغة العربية على كافة الكليات بما فيها الكليات العملية والتي تعتمد فيها الدراسة على لغات أخرى كالإنجليزية.
- ✓ إقامة ندوات وورش عمل لتثقيف الطلبة وزيادة وعيهم بالثقافة العربية.
- ✓ تشجيع إقامة الأنشطة التي تحفز الطلبة على صقل معارفهم ومهاراتهم اللغوية والثقافية.

انتهاء المحاضرة الثانية عشر

المحاضرة الثالثة عشر

الدِّينُ وَالْعِلْمُ

نمهيده:

هل هناك قضية بين الدين والعلم يمكن أن تبحث؟ هل العلاقة التي بين الدين والعلم هي ما بين كفتي الميزان من توازن وتراجيح؛ فإذا خفت كفة أحدهما ثقلت كفة الآخر؛ بحيث إذا ساد الدين انحسر ظل العلم، واستولى الجهل على الناس، وانتشرت الترهات والأباطيل، وإذا ساد العلم انكمش ظل الدين، وضمير وجوده، وانزلق الناس في الشهوات والمصالح الذاتية فلا يجدون ما يقودهم إلى الحق والعدل، ويحملهم على رعاية الفضيلة وانتهاج سبلها؛ إن التاريخ يشهد بمساهمة الأديان في بناء الحياة الإنسانية، والتأثير في عقول الناس وقلوبهم وإقامة المجتمعات والحضارات، وفي غرس الفضائل والأخلاق، وتكوين العادات الطيبة، وتنظيم الحياة الإنسانية، وضبط حدود الحقوق والواجبات بين الناس. فقد سجل التاريخ ذلك في حياة الفراعنة واليونان والرومان والهنود والصينيين والبابليين والأشوريين، وهم يدينون بديانات وضعية فكيف بالأمم التي تدين بديانات سماوية بعث الرسل بها لخير البشرية جمعاء إنه لا يمكن لعاقل عرف وظيفة الدين ومكانته في حياة البشر أن ينكر حقيقة سلطانه على النفوس، واقتداره على قيادة الناس، وإلزامهم كلمة التقوى؛ إذ كيف للإنسان أن يسير عطلاً من المرشد الذي يبصّره بمعالم الطريق، ويهديه سواء السبيل؛ هل الدين في أي مجتمع هو حقاً علة وقوع الإنسان في الضعف والهوان؛ وهو علة تأخر المجتمعات وانحطاطها، وأن ذلك يتبين بمقارنتها بما آل إليه حال المجتمعات المادية الملحدة من تقدم وتطور؛ وثم سؤال أخير .. أحقاً أن النهضة العلمية الحديثة والمدنية التي نشأت وتطورت في المجتمعات المادية الملحدة قامت منفصلة عن الدين، بعيدة عن مؤثراته؟

تعريف الدين وأهميته للإنسان والمجتمع:

تعريف الدين :

في اللغة يعني الذل والطاعة والخضوع والانقياد لوضع معين، هذا الوضع إما أن يكون إلهياً أو غير إلهي. **وفي الاصطلاح** هناك من يرى أن الدين: ((وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات)). وهناك من ينتقد هذا التعريف، ويرى أن الدين أعم من أن يكون خاصاً بالدين السماوي؛ وأنه يشمل كل الأديان، فهو ((قوة سماوية أو وثنية، مادية أو معنوية تُعبد وتُسبَد وتُطَاع)). ولا ريب في أن التعريف الثاني أصح؛ فهو المنسجم مع معنى الدين في القرآن الكريم؛ فقد استعمل القرآن الكريم هذه المفردة مع الوثنية ديانة أهل مكة، وهي غير سماوية، واستعملها مع الإسلام وهو الدين السماوي الإلهي الحق في قوله ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي﴾. ووصف الله الإسلام بأنه الدين الحق الذي أظهره الله على جميع الأديان الباطلة سماوية كانت أم وضعية؛ قال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

أهمية الدين للإنسان والمجتمع :

الأديان ذات حضور مؤثر في حياة الإنسان، وفي بناء المجتمع مهما كان هذا الدين من الصحة أو البطلان، وما من مجتمع إلا وقد تدين، فالتدين تأتي أهميته للإنسان والمجتمع من النواحي التالية:

- أنه فطرة خلق عليها الإنسان، ينزع إليها ليشبع حاجة الروح إلى الإيمان بالمعبود، ويستمد منها عقيدته ومفاهيمه للوجود والحياة، ويضبط به أمور حياته.
- أنه ضرورة حيوية لاستكمال وجود الإنسان، واستقرار حياته، وانتظام معيشتة، يستمد منه القوة الدافعة إلى العمل، ويتزود منه الصبر على مكاره الحياة، والثبات في وجه تياراتها الهائجة، وعواصفها القوية.
- أنه ضرورة اجتماعية يتم عن طريقها التأكيد على الإيمان بالقيم والفضائل، والالتزام بالأحكام والقوانين التي تعنى بتنظيم شؤون الحياة؛ فإنه إذا قُدِّرَ لمجتمع أن يضرب بسهم في مجال الالتزام بالمبادئ والقيم فلن يجد قوة أقوى من الدين تحمل أفرادة على التمسك بزمامها، وترد الشارد منهم ، وتتجه بهم جميعاً نحو الكمال والمثالية.

تعريف العلم وأهميته:

في اللغة يعني اليقين والمعرفة والإدراك، وهو نقيض الجهل، وهو كما قال الراغب الأصفهاني: (إدراك الشيء بحقيقته). أو هو: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع الناتج عن دليل؛ فإن لم يكن كذلك كان ظناً أو جهلاً أو تقليداً، ويطلق على الصفة الراسخة التي يدرك بها الإنسان الكليات والجزئيات.

ويقصد به: مجموعة المعارف والحقائق التي وصلت إلى الإنسان عن طريق الوحي، أو توصل إليها من خلال تفكيره وملاحظاته وتجاربه طوال فترة حياته. وقد وضع ابن خلدون هذين النوعين من العلوم وبين أنهما صنفان: صنف طبيعي للإنسان يقف عليه بفكره، ويهتدي إليه بمداركه، وصنف نقلي يستند إلى الخبر عن الواضع الشرعي، لا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول. إن العلم وفق هذين المعنيين تراث متراكم من المعارف والحقائق والمعلومات، يعنى بدراسة الجزئيات، ويتجه نحو العمق في المسائل والاهتمام بالتخصص العلمي. وتنقسم هذه العلوم إلى قسمين: الأول علوم دينية وإنسانية خاصة بأمة بعينها كعلوم الدين والأدب والتاريخ والاجتماع، والآخر علوم حسية تجريبية تطبيقية مشاعة ساهمت في إنشائها وتراكمها كل الأمم.

أهمية العلم: العلم ضروري للإنسان والمجتمع، وتأتي أهميته من النواحي التالية:

- أنه وسيلة التحرر من الجهل والخرافة والوهم، فالعلم يطارد هذه الآفات كما يطارد النور الظلام، ولا يمكن أن يستقيم حال إنسان من غير علم ينير له طريق حياته، ويهديه إلى الخير، كما أن المجتمع لا يمكن أن يستقر ويتطور إذا لم يعتمد على العلم النافع، ويأخذ بأسباب الحضارة والتطور.
- أنه سبيل الخلوص من العبودية لغير الله ﷻ، وطريق معرفة الله ومعرفة شرعه، وأداة إصلاح أمر الإنسان في الدنيا والآخرة؛ فإن التكليف مناط بالعقل، وهو وسيلة فهم الخطاب الشرعي وإدراك مراد الشارع.
- أنه أداة استعمال العقل والحواس للوصول إلى المعرفة، وأداة تدبر القرآن لإصلاح النفس، وأداة التفكير في ملكوت السموات والأرض لإدراك سنن الله ﷻ، وأداة التعرف على أمور الدنيا عن طريق الملاحظة والتأمل لإصلاح حال الإنسان وبيئته. وإذا كان العلم المؤدي إلى معرفة الله ومعرفة شرعه يستند على الوحي فإن العلم الطبيعي والتجريبي يستند على البرهان واليقين، وقد أحيل الإنسان فيه إلى عقله واجتهاده؛ لقول الرسول ﷺ: ((أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُنِ دُنْيَاكُمْ)). وغاية ما يهدف إليه كما يقول (برتراند رسل) هو محاولة اكتشاف حقائق معينة عن العالم ومن ثم القوانين التي تصل الحقائق ببعضها بحيث يمكن التنبؤ بحدوث مستقبلية، ويتم هذا عن طريق الملاحظة والتفكير الذي يستند عليهما، وتأتي أهمية هذا العلم من ناحية قدرته على توظيف المعرفة لإنتاج وسائل الراحة والرفاه التي كانت مستحيلة، أو ذات كلفة عالية في حقبة ما قبل هذا العلم.

وحدة الدين والعلم:

الإيمان بحاجة إلى الدين والعلم، فهما يهيئان له الحياة الكريمة، ويمنحانه حقوقه، وينظمان حياته وعلاقاته بغيره، ويستحثانه على الفهم والتفكير والعمل، ويرشده إلى ما فيه مصلحته؛ لذا كان من الضروري أن يكون الدين والعلم في صفة مستمرة، وألفة دائمة، وأن يكون العلم وما يتوصل إليه من نتائج داعماً لحقائق الدين، ومصدقاً لما جاء به، وأن يكون الدين بمعتقداته وأحكامه وشرائعه شاحداً للعقول، ومُبَصِّراً للقلوب، وهادياً لها إلى منهج الحق المبين والنفع للناس أجمعين. إن الإنسان بحاجة إلى الدين والعلم لا يفتنيه أحدهما عن الآخر، فالعلم لا يفتني عن الدين، فقد يخيل لأحد أن الإنسان بالعلم يستطيع أن يتجه في حياته نحو الخير فلا يضل الطريق، ولا يشقى، إن ذلك محض ادعاء لا تقوم له حجة من واقع الحياة، ولا من شواهد التاريخ، فما كان العلم وحده يوماً عاصماً للإنسان من الزلل الخلقي، ولا قادراً على إقامة وازع في نفسه يردعه عن اتباع الهوى. خلافاً للدين الذي يزجر صاحبه عن ارتكاب الإثم، وإذا ارتكبه متعمداً جعله يشعر بالخطأ والندم، إنه لا شيء يقوم مقام الدين في إقامة الوازع القوي اليقظ الذي يقوم دائماً بين الإنسان وبين نوازع السوء والضلال. فهل يا ترى يقوم العلم الطبيعي والتجريبي هذا المقام؟ فببعت العلم بقانون الجاذبية أو الذرة أو بمعلومة علمية أخرى لدى الإنسان الإحساس بالإثم والشعور بالواجب ما يبعثه الدين. كما أنه لا شيء يقوم مقام العقل في إثبات الإيمان والقطع بصحته وصدقه. وهذا يعني أن الإيمان يمازج العقل، وقيمه دليلاً هادياً إليه، بحيث لا يبقى أثر لتوهم أن الإيمان على الدوام تسليم بما يباهه العقل، وأن العقل وظيفته القبول المحض؛ فليس له حق الحكم على أدلة الدين، واستنباط الأحكام من مظانها بحسب قدرته من الفهم والإدراك. إن ثمة أمراً آخر لا بد منه لتحقيق الانسجام التام بين الدين والعلم وهو صحة الجانبين: جانب الدين بحيث يكون قائماً على مصدر موثوق، خالياً من الهوى والخرافة والباطل. وجانب العلم بحيث يكون قائماً على دليل صحيح من النقل أو العقل سالم من الظن والتخمين والكذب. وكان من فضائل الإسلام التي تميز بها بين الأديان أنه ارتكز على العلم، وحث أتباعه على البحث عن حقائقه، وفتح لهم أبواب التفكير في هذا الخلق الواسع المليء بالسنن الكونية والقوانين العلمية: يقول العقاد: ((فضيلة الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة، ويحث على ولوجها والتقدم فيها، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن، وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم، وليست فضيلته الكبرى أنه يقعدهم عن الطلب، وينهاهم عن التوسع في البحث والنظر؛ لأنهم يعتقدون أنهم حاصلون على جميع العلوم)). لقد دفع الإسلام الإنسان نحو التعرف على أسرار الكون ونواميسه، والتوسع في الكشف العلمية فكان في ذلك انتصار لقضية الدين؛ إذ لا خوف على الإسلام من البحث العلمي؛ فالحقيقة لا تخشى البحث، والإسلام على يقين من أن البحث العلمي السليم والتأمل السديد يوصلان إلى نفس النتائج التي يقرها. وكان هذا الاتجاه أيضاً داعماً لقوة الإنسان التي تزداد صلابة كلما استزاد من معين الإيمان بالله ﷻ؛ فليس معدن الدين من معدن الضعف في الإنسان، وليس الإنسان المؤمن هو الواهي الهزيل، وربما كان الأصح والأولى في التقدير والتحقيق أن عظم العقيدة في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون والتدبر في أسراره وخفاياه.

الصراع بين الدين والعلم في أوروبا:

حدث صراع مرير في القرون الوسطى بين رجال الكنيسة الكاثوليكية في روما ورجال العلم التجريبي نتيجة أبحاثهم واكتشافاتهم التي بينت بطلان بعض الآراء في المسائل الفلكية والجغرافية التي أضفت الكنيسة عليها صفة الدين، وجعلتها جزءاً من النصوص المقدسة التي يمنع نقضها أو نقدها أو مناقشتها، ورأت أن في نتائج هذه الأبحاث والكشوف جراً على الكنيسة التي كانت تمسك بزمام السلطة على كافة أصقاع أوروبا، وهدما لتعاليمها؛ لذا نظرت إلى هذه الحركة العلمية القائمة على العقل بحذر وتوجس خوفاً على سلطانها ومكانتها، لكن الصراع ما لبث أن تفاقم بين الطرفين منعكساً سلباً على العلاقة بين الدين والعلم، فقد قامت الكنيسة بهجمة شرسة على العلماء، فكفرتهم وبدعتهم واستحلت دماءهم، وأنشأت لمعاقبتهم محاكم التفتيش.

فعلى سبيل المثال حكمت محكمة التفتيش في مدة لا تزيد على ثمانية عشر عاماً من 1481م - 1499م على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصاً بالحرق أحياء فأحرقوا، وعلى ستة آلاف وثمانمئة وستين بالشنق فشنقوا، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت.

ومن العلماء الذين اضطهدتهم الكنيسة (غاليلو) بسبب قوله بأن الأرض تدور حول الشمس، وأن هناك كواكب سياراً تزيد عن السبعة التي ذكرت في الكتب المقدسة، فقد اعتبروا ذلك نوعاً من الإلحاد، فسجن سنة 1615م بناءً على حكم صدر من محكمة التفتيش في روما، مما اضطره إلى التراجع عن آرائه، وأقسم على أن يعلن توبته وهو جاث على ركبتيه أمام (البابا أوربان الثاني) قائلاً: ألعن واحترق خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور. وأفلت (كوبرنيكس) من قبضة الكنيسة بتدارك الموت له عقوبة على قوله بكروية الأرض، وطاردت الكنيسة (برونو) لتقريره كروية الأرض ودورانها إلا أنه قبض عليه بالبندقية، وسجن بروما، ثم أحرق حياً. ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هذا الصراع وهذه العداوة بين رجال الدين والعلم في أوروبا ما يلي:

- ✓ تعسف الكنيسة وتسلطها على رجال العلم والفكر.
- ✓ تبني الكنيسة لبعض النظريات الفلكية والآراء الجغرافية.
- ✓ تعنت الطرفين في التمسك بآرائهما.
- ✓ اختلاف المنهج العلمي عن الدين السائد في أوروبا.

إن حقيقة هذا الصراع لم تكن بين الدين بصيغته الإلهية النقية، وإنما بصيغته المحرفة التي كانت عليها النصرانية في تلك الفترة من الزمن. وإن ما حققه العلم من انتصار كان في المواقع التي انتصر فيها العقل واليقين على الخرافة والوهم. إن الحق من الطرفين هو الذي انتصر فلو كانت تعاليم الكنيسة حقاً خالصاً، والعلم بمنهجه الجديد في أوروبا يقيناً مجرداً لما حدث هذا الصراع. وإنه من المؤسف أن جنائية رجال الدين على الحقيقة العلمية كانت أشنع من جنائية أنصار المنهج الحسي التجريبي عليها، وأن كلا الطرفين كان مسؤولاً عن النتائج المؤسفة لهذا الصراع.

موقف الإسلام من العلم:

الإسلام هو دين العلم، فقد كانت أول آيات كتابه الكريم نزولاً هي أمر بالقراءة، قال ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. كما أن الله ﷻ أقسم فيه بالقلم تعظيماً له: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؛ وفي هذا دلالة عظيمة على احتفاء الإسلام بالقراءة والكتابة لما لهما من أهمية بالغة في تقييد العلم والمعرفة وضبطهما. كما أن الله رفع درجات العلماء تقديراً لمكانتهم، وتعظيماً لشأنهم: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. وما ذاك إلا لكون العلم نعمة إلهية يخص الله بها من يشاء من عباده: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وقال الرسول ﷺ: ((العلماء ورثة الأنبياء)). ومصدر العلم هو الله؛ إذ قال ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. وقال ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. وقال ﷻ: ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ﴾. وقال ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

إلا أن طريق الإنسان إلى هذا العلم بحسبه، فنصف منه يصل إليه عن طريق الوحي، وهو ما دل عليه قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. والنصف الآخر يصل إليه عن طريق العقل بالتفكير والملاحظة والتأمل والرصد والتجربة والسير في الأرض والنظر في خلق الله للبحث عن سننه الكونية؛ قال ﷻ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَسَخَّرْنَا لَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ﴾. والعلم الصحيح هو ما كان مبنياً على مصادر صحيحة أو تفكير صحيح أو تجارب ثابتة بعيداً عن الجهل والظن والكذب. قال ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، وقال ﷻ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وعموماً فإن العلم في الإسلام فريضة واجبة يتقرب بها إلى الله، وطريق من طرق العبادة يوصل إلى الجنة. قال ﷻ: ((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)). وقال ﷻ: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ)). وبناء على هذا الحكم اعتنى علماء المسلمين بعلوم الدين بياناً وتوضيحاً واستنباطاً مستنديين في فهمهم على كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، واشتغلوا بها بحثاً ودراسةً وتعليماً. فأنشؤوا المدارس، وأقاموا حوانيت الوراقين التي كانت أسواقاً للعلماء ومناظراتهم، وشيدوا المكتبات لخدمة العلم، وتيسير الاطلاع على ما ألف من علوم. ولم يكن الاهتمام مقصوراً على علوم الدين بل شمل العلوم التي تعتمد على الحس والتجريب، فإن الحس والتجربة يعدان أساسين لهذا الصنف من العلوم. فقد أكد ابن حزم في كتابه ((التقريب في حدود المنطق)) أن الحس أصل من أصول العلم، وأن ابن تيمية بين في كتابه نقد المنطق أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين. فالمنهج التجريبي ولید الفكر الإسلامي وليس من ابتكار الفكر الغربي. يقول بريفولت في كتابه ((بناء الإنسانية)): ((ليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية)). وكان من مظاهر الاعتماد على الحس والتجريب في العلم الطبيعي عناية علماء المسلمين بعلم الفلك ومعرفة طوائع النجوم، وذلك لمعرفة منازل الهلال وأوقات الصلاة والصيام والحج، ولهذا الغرض أنشئت المدرسة الفلكية ببغداد، ويعد (البتاني) أحد عشرين عالماً فلكياً في العالم، وألف البيروني كتاب ((الاستيعاب في وضع الإسطرلاب))، وقد استطاع المسلمون دراسة حركة الشمس وانحرافها، ومعرفة الانحراف القمري الثالث الذي عد اكتشافاً جديداً، كما اعتنى علماء المسلمين بالرحلات الجغرافية، فكتبوا عن المسالك وطرق القوافل والبريد، ووصفوا الجبال والبحار والأنهار. ورسم (الأدريسي) خريطة اشتملت على أماكن لم تعرف إلا من قريب. كما اهتم علماء المسلمين بعلوم الرياضيات فكان (الخوارزمي) أول من ألف في علم الجبر، له كتاب ((الجبر والمقابلة)). وألف ابن الهيثم كتاب ((تربيع الدائرة)) وكتاب ((الأشكال الهلالية))، وألف البيروني كتاب ((استخراج الأوطار))، وفي علم الفيزياء وضع (ابن الهيثم) كتابه ((البصريات)) الذي أسسه على دراسة تجريبية.

وفي علم الكيمياء كان المسلمون أول من استعمل طرق التصعيد والتبلور والتذويب والتصفية لاستخراج المواد أو مزجها، وأول من صنع المراهم والدهانات، وأول من حضر الحوامض مثل تحضير زيت الزاج (حامض الكبريتيك). وفي علم الطب بلغ علماء المسلمين درجة من التفوق والريادة، فقد بقيت كتبهم تدرس في جامعات الغرب إلى عهد قريب، ومن مشاهير أطباء المسلمين (الرازي) وله كتاب ((الحاوي)) تحدث فيه عن صناعة الطب. ومن عباقرة الطب (ابن سينا) الذي ألف كتاب ((القانون)) الذي كان محط إعجاب في جميع الأوساط العلمية إلى اليوم، وقد ترجم إلى عدة لغات، ومن الأطباء المشهورين: (جابر بن حيان) و(الزهراوي) و(ابن النفيس) وغيرهم، وبرز المسلمون كذلك في علم الصيدلة، فقاموا بفتح المستحضرات كتحضير الأشربة واللعوق واللزقات، وألف (ابن جزلة) كتاب ((منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان)) جمع فيه أسماء الأعشاب والعقاقير. إن إنجازات علماء المسلمين في العلوم التجريبية لا يمكن حصرها؛ فقد تمكنوا من تطوير العلوم التي ورثوها من الأمم الأخرى كعلوم الفلك والطب. بل إنهم ابتكروا علوماً جديدة كعلمي الجبر والكيمياء، واعترف لهم بهذا الفضل علماء أوروبا الذين لا يزالون يكتشفون من كنوز علومهم وأسرار معارفهم ما يستفيدون منه في تحسين أمورهم وزيادة معرفتهم فهذا (داربر) في كتابه ((التنازع بين العلم والدين)) يشيد بعلماء المسلمين وأنهم كانوا متبعين في أبحاثهم الأسلوب العملي التجريبي بعد أن تحققوا من أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم، وأن الوصول إلى الحقيقة في هذه العلوم لا يكون إلا بمشاهدة الحوادث ذاتها؛ لذا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والعمل الحسي. إن هذا المنهج هو الذي قاد المسلمين لأن يكونوا أول واضعي علم الكيمياء، وأول من اكتشف آلات التقطير والتصعيد والإسالة والتصفية الخ... وهو الذي جعلهم يستعملون في أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والإسطرلابات (آلات قياس أبعاد الكواكب)، وبعثهم على استخدام الميزان في العلوم الكيميائية الخ، وهو الذي جعلهم يترقون في الهندسة وحساب المثلثات، وهم بهم لاكتشاف علم الجبر. إن ذلك غيض من فيض، يصعب حصره والإلمام به، وكان لنتائج هذه العلوم أثر جلي في تطوير فنون الزراعة في أساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وإدخال زراعة الأرز والسكر والبن، وانتشار المعامل والصناعات كمنسج الصوف والحريير والقطن وإذابة المعادن وسبكها وتهذيبها.

انتهاء المحاضرة الثالثة عشر

المحاضرة الرابعة عشر

تَأخُّرُ الْمُسْلِمِيَّةِ وَسَبِيلُ التَّخَوُّصِ بِهِمْ

نمهيده:

ظلت الأمة الإسلامية متماسكة البناء الحضاري، متألقة في سماء الإبداع والعطاء، ممثلة نموذجاً فذاً للنظام الذي يحقق للإنسان إنسانيته ويحفظ له كرامته ويضمن له فعالية مطردة في مجالات التقدم. ولم يتحقق هذا إلا بفضل ذلك المنهج الحضاري الشامل الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يحتاجه الإنسان في مسيرته الحضارية إلا هياًه ووفره. وما هو قابل للاجتهاد بواسطة العقل وضع له الضوابط الدقيقة التي تعصم العقل من الزيغ في حركته الاجتهادية، وبذلك وصلت الأمة الإسلامية قمة الازدهار وقمة العطاء... ولكن أتى عليها حين من الدهر وجدت نفسها وقد ولى عنها ذلك المجد الزاهي فرجعت القهقري، وبتعبير آخر تخلفت وتأخرت، وحلت بها الأزمة. فما هي الأسباب التي كانت وراء التخلف؟ وكيف السبيل إلى بعث الحضارة من جديد؟

مفهوم التخلف:

التخلف لغة: جاء في ((لسان العرب)) لابن منظور (مادة تخلف) ما يلي: ((الخلف ضد قدام... وجلست خلف فلان أي بعده... والتخلف: التأخر. وفي حديث سعد: فخلفنا فكنا آخر الأربع أي أخرنا ولم يقدمنا، والحديث الآخر: ((حتى إن الطائر ليمر بجنايتهم فما يغلفهم أي يتقدم عليهم ويتركهم وراءه))، ومنه الحديث: ((استوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم))؛ أي: إذا تقدم بعضهم على بعض في الصفوف تأثرت قلوبهم، ونشأ بينهم الخلف، وفي الحديث: ((لنسون صوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم))؛ يريد أن كلاً منهم يصرف وجهه عن الآخر ويوقع بينهم التباغض؛ فإن إقبال الوجه على الوجه من أثر المودة والألفة)).

منخلفون من ماذا؟

اصطلاحاً: إن مفهوم التخلف يتضمن أو يفترض وجود نموذج يجسد التقدم وآخر متخلف عنه، فمشيت خلف فلان يعني أنني تخلفت عنه، وتخلفت عن الركب يعني أن تخلفي يقاس بالموقع الذي يحتله ذلك الركب في المسار الذي يفترض السير فيه.

ومن هذا المنطلق نجد كثيراً من الكتاب والباحثين الذين أشاروا قضية تخلف المجتمع المسلم يرون أن هذا المجتمع متخلف بالنسبة للمجتمع الغربي وقد خضعوا في نظرتهم تلك، للمقياس الذي أشاعه الغرب للتقدم والتخلف. وهو اعتبار نمودجه ممثلاً للتقدم، واعتبار نماذج بلدان آسية وإفريقية وأمريكا اللاتينية نماذج التخلف، ولم يقصر ذلك على الجوانب التقنية والعلمية والصناعية ومستويات المعيشة، وإنما مدها إلى القيم والأخلاق ومكونات الشخصية، فاعتبر نمودجه معيار التقدم وأخذ يقيس عليه النماذج الأخرى، التي ستعتبر متخلفة بالضرورة ما دامت وحدة القياس هي النمودج الغربي. والواقع أننا عندما نحكم على أمة بالتخلف فلا بد لنا من مقياس نستند إليه في ذلك الحكم، ولكن الذي ينبغي أن نعتقد عليه يقيننا أن ذلك المقياس ليس هو إطلاقاً نمودج الغرب وحضارته المادية. وإنما هو النمودج الإسلامي المتكامل الذي تجسد على أرض الواقع ردهاً من الزمان وأشع بأنواره على البشرية كلها، ولا يزال إلى الآن وإلى الأبد مثلاً ترنو إليه الأبصار والعقول التي تدرك المعنى الحق للحضارة والتقدم. والسبب في ذلك واضح، وهو أن النمودج الغربي قد قام على أساس مادي صرف وعلى رؤية مبتورة لمفهوم التقدم مشتقة من رؤيته للكون والحياة والإنسان... وهي رؤية لا تحتل منها القيم الأخلاقية والفضائل التي تسمو بحياة الإنسان وتميزه عن الحيوان حيزاً يذكر.

من هنا وجب تحرير عقول المسلمين من ذلك الاقتران الخطير الذي درجت على استساغته، وهو الاقتران بين التقدم ومجتمع الغرب، غافلين كل الغفلة عن أن ذلك الطراز من التقدم إذا وضع في ميزان الإسلام سيكون مصيره الرفض لأنه يهتم بإشباع حاجات الإنسان المادية، ويخفق فيه حاجاته الروحية، وهو في النتيجة والمآل سينعكف على منتوجاته المادية ويدمرها تدميراً، في غياب الحصن الأخلاقي الذي يحمي مكاسب الإنسان الحضارية ويصونها من الفساد. إننا عندما نحلل مكونات الحضارة الغربية في ضوء ما سبق ننتهي إلى وضعها في قفص الاتهام، بل إننا لا نتردد لحظة في وصفها بوصمة التخلف لأنها بعيدة بأوضاعها وأجوانها عن الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان؛ فبينما وتائر الإنتاج المادي في تصاعد إذ بالإنسان يمعن في الارتكاس حتى وصل إلى هذه الصورة البائسة التي نراه عليها اليوم من تمزق وانحلال وعبثية عمياء. ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن التخلف الحضاري للأمة العربية الإسلامية فلا يخطرن ببال أصحاب العقول الراجعة أننا نقيس الأمة الإسلامية على الحضارة الغربية. بل إننا نصف الأمة الإسلامية بالتخلف ونحن على يقين أن من أهم أسباب تخلفها الجري وراء نموذج الغرب، ومحاولة الاقتداء به والسير في ركابه ورؤية الحياة كما يراها هو، والاصطباغ بصفتها المادية التي حولت الإنسان إلى بهيمة سائمة، بل أضل سبيلاً. إن في (مجتمعنا الإسلامي) أزمة، لا بل أزمت؛ يعبر عنها في الممارسات السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والتربوية والخلقية، وتأخذ طابع الازدواجية في السلوك، والانحراف شبه الكلي عن أصالة المبادئ والقيم التي تنتمي إليها الأمة. والأزمة تلح علينا بصور عدة ونراها تقعد وتهبط تبعاً لمؤثرات كثيرة وأحداث متلاحقة، إلا أن حدثها قد اشتدت وأصبحت تنذر بشر مستطير؛ منه تدهور الأمة وانحلالها وانعدام أثرها وفعاليتها، واختزال دورها إلى مستوى هامشي لا يعتد به.

ما هي مظاهر التخلف؟

للتخلف في العالم الإسلامي مظاهر عديدة تشمل مختلف أبعاد الحياة؛ مثل:

- ✓ التخلف الاقتصادي.
- ✓ التخلف الاجتماعي.
- ✓ التخلف الثقافي والفكري.
- ✓ التخلف السياسي.
- ✓ التخلف العلمي والتقني.

جهود الخروج من التخلف:

لو فحصنا سجلات المئة سنة الماضية من أعمال المصلحين والمفكرين وجهود الأمة لوجدنا فيها كثير من الوثائق والدراسات ومقالات الصحف والمؤتمرات التي تتصل بموضوع النهضة. هذه الدراسات تعالج الاستعمار والجهل هنا، والفقر والبؤس هناك، وانعدام التنظيم واختلال الاقتصاد أو السياسة في مناسبة أخرى، ولكن ليس فيها تحليل منهجي للمرض، أعني دراسة مرضية للمجتمع المسلم، دراسة لا تدع مجالاً للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون. ففي الوثائق نجد أن كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعاً لرأيه أو مزاجه أو مهنته. فهناك من رأى أن الأزمة سياسية تحتاج حلاً سياسياً، فركز كل جهوده في التغيير والإصلاح السياسي، وانتقاد فساد الحكم، ومحاولة تغيير أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية. وهناك من رأى أنها أزمة أخلاقية تستلزم حلاً أخلاقياً، فذهب إلى أن الحل يكمن في الالتزام بالخلق الإسلامي الرفيع، والإقلاع عن المعاصي بمعناها الفقهي فقط، وبالتالي راح يتذمر من الفساد الأخلاقي، واعتبره مكن الداء وهناك من رأى أنها أزمة عقديّة تستلزم إصلاح العقيدة، وأن لا حل إلا بتخليص العقيدة من الكلام والفلسفة، وإعادة تعليم الناس عقائد الإسلام، وإقناعهم بأن الله هو الخالق وهو المعبود الحقيقي،

وأن الالتزام بعقيدة التوحيد هو الحل، فتوجه إلى صياغة علم العقيدة من جديد بأسلوب آخر. على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه. وقد نتج عن هذا أنهم منذ مئة عام لا يعالجون المرض، وإنما يعالجون الأعراض، وكانت النتيجة قريبة من تلك التي يحصل عليها طبيب يواجه حالة مريض بالسل، فلا يهتم بمكافحة الجراثيم، وإنما يهتم بهيجان الحمى عند المريض.

أسباب الخلف [الناخر]:

أسباب داخلية أساسية: المرض كامن في نفس المسلم، وفي ثقافته الموروثة من زمن الانحطاط، كما هو كامن في سلوك المسلم وتصرفاته اليومية، وفي قلبه وعقله.. والأزمة تكمن في الأدران العالقة بالمسلم من تراث الانحطاط عبر القرون.

سبب خارجي ثانوي: المعامل الاستعماري الذي يستغل ضعفنا وقابليتنا للاستعمار.

والمريض نفسه يريد - ومنذ مئة عام - أن يبرأ من آلام كثيرة: من الاستعمار ونتائجه، من الأمية بأشكالها، من الفقر رغم غنى البلاد بالمادة الأولية، من الظلم والقهر والاستعباد، من ومن، وهو لا يعرف حقيقة مرضه ولم يحاول أن يعرفه، بل كل ما في الأمر أنه شعر بالألم، ولا يزال الألم يشتد، فجرى نحو الصيدلية، يأخذ من آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الآلام. وليس في الواقع سوى طريقتين لوضع نهاية لهذه الحالة المرضية؛ فإما القضاء على المرض وإما إعدام المريض. لكن هناك من له مصلحة في استمرار هذه الحالة المرضية سواءً أكان ممن هم في الخارج أو ممن يمثلونهم في الداخل. لقد دخل المريض إلى صيدلية الحضارة الغربية طالباً الشفاء، ولكن من أي مرض؟ وبأي دواء؟ وبدهي أننا لا نعرف شيئاً عن مدة علاج كهذا، ولكن الحالة التي تطرد هكذا تحت أنظارنا منذ قرن، لها دلالة اجتماعية يجب أن تكون موضع تأمل وتحليل. إن نهضة المسلمين تحتاج منا أن نعمل على إزالة معوقات النهضة من جهة، وصياغة مشروع نهضة من جهة أخرى.

أولاً: معوقات النهضة: هناك معوقات ذاتية ومعوقات موضوعية؛ فأما الذاتية فهي نابعة من ذاتنا الحضارية بفعل ما أصاب المسلمين من أمراض تصيب المجتمعات والحضارات، وهي سنة الله في خلقه لا يمكن أن تحاينا لأننا مسلمون، بل يصاب بها كل من لم يتحقق بشروط التحصين منها. وهي معوقات اجتماعية ونفسية وفكرية. وأما المعوقات الموضوعية فهي العوامل الخارجية لتخلفنا وتأخرنا، وهي أساساً الهيمنة الحضارية الغربية وما جلبت علينا من مختلف التحديات بداية بالاستعمار ونهاية بالعولمة والغزو الفكري والحضاري.

ثانياً: صياغة مشروع للنهضة الحضارية.

معوقات النهضة: المعوقات الذاتية [اجتماعية ونفسية وفكرية]

أولاً: المعوقات الاجتماعية:

- **الحرفية في الثقافة:** الجهل المركب الذي يتميز به المثقف العربي يشكل مرضاً مزمناً ومعدياً ومتوارثاً بين الأجيال لأن الجاهل الذي يقدم نفسه على أنه حامل للشهادة الأكاديمية، أو حامل لكتاب الله لا يدرك أنه جاهل ويعتقد بأن الشهادة التي حصل عليها هي المقياس الوحيد لمكانته العلمية، ولوقوعه في أسر الغرور وجنون العظمة لا يعترف بأخطائه ولا يصححها.
- **تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية:** تمزق البناء الاجتماعي للأمة، وسيادة النزعة الفردية في المجتمع مما يؤدي إلى انعكاس معيار القيم، وتعارض مصالح الأفراد والجماعات فيما بينها، فيحدث الاصطدام الداخلي الذي يقضي على العمل التكاملي الجاد ويؤدي إلى إهدار الكثير من الطاقات الاجتماعية وصرفها فيما لا جدوى منه.

- **عدم تماسك عالم الأفكار:** أما الأفكار السائدة في العالم الإسلامي اليوم فما هي إلا مزيج من الأفكار التي تعيق التطور والنمو وتتمثل في الأفكار الميتة والأفكار القاتلة، ورغم اختلاف مصدرهما إلا أن كلاهما يؤدي إلى الهدم لا البناء.
- **طفیان عالم الأشياء:** إن طبيعة العلاقة بين الإنسان المسلم اليوم وعالم الأشياء يحددها المعيار الصبباني في التعلق بالأشياء؛ إذ لم يعد الإنسان يستمد مكانته الاجتماعية من كونه إنساناً ولا من زاده المعرفي وإنما من كمية الأشياء التي يمتلكها ويتصرف فيها.
- **طفیان عالم الأشخاص:** كما أن الجماهير في مجتمعنا لم تعد تؤمن بمشاريع فكرية معينة، بل كل ما يشد انتباهها هو ذلك الشخص الكارزمي الذي يعتقدون أنه يمتلك جميع الحلول لمشكلاتهم الخاصة، إلى درجة أن يتحول شخص الزعيم إلى وثن يعبد إماماً خوفاً وإماماً انبهاراً وإماماً طمعاً.
- **سيادة النزعة السياسية:** انحراف الممارسة السياسية في الوطن العربي، بحيث انفصلت السياسة عن القواعد والأسس العلمية التي تقوم عليها وتحولت إلى خداع ومكر وتضليل يمارسه بعض الدجالين لمغالطة أصحاب النوايا الطيبة والسذج من الجماهير، واستخدام جماجم الضعفاء كجسر للوصول إلى السلطة أو البقاء فيها.

ثانياً: معوقات نفسية:

- **غياب الفعالية:** يتميز تفكير الإنسان المسلم اليوم في معظمه بأنه تفكير نظري غير مرتبط بأهداف عملية، وأغلب من يسمون أنفسهم بدعاة التغيير يكثرون الكلام من دون أن يكون لذلك أي انعكاس إيجابي على الواقع.
- **الميل إلى التكديس:** لجوء المجتمع الإسلامي إلى التكديس بدل البناء، فطفیان الشبئية أعمى بصيرته وجعله يففل عن البناء المرحلي التكاملي ويبدله بتكديس منتجات الحضارة إلى جنب بعضها البعض معتقداً أن هذه المنتجات هي التي تصنع الحضارة في حين أن العكس هو الصحيح بحيث إن الحضارة هي التي تُلد منتجاتها. ويشتمل التكديس على الأشياء والأفكار والأشخاص.
- **القابلية الاستعمار:** إن الاستعمار ما كان ليُعمَرَ طويلاً في العالم الإسلامي لو لم يجد الأرضية مهياة لبقائه من خلال ذلك الاستسلام التام بل والوقوف إلى جانبه من طرف البعض وتبني أطروحاته والدفاع عنها من طرف البعض الآخر، ومنه فالقابلية للاستعمار إنما تعني تلك الحالة النفسية السلبية المتمثلة في الرضا بالعدو والاستسلام للهوان والعجز عن مواجهة تحديات الواقع ومشكلاته.

ثالثاً: معوقات فكرية:

- **النزعة الذرية (التجزئية):** إن أسباب كبوة المشاريع النهضوية ترجع إلى تلك الانطلاقة غير الموقفة التي لا تقوم على الرؤية التكاملية العميقة، والتي لا تدرك أهمية مختلف جوانب الحياة المادية منها والمعنوية، وتأثيراتها المتبادلة فيما بينها، وإنما تقوم على رؤية سطحية تجزئ المشكلات، وتطرحها منفصلة عن بعضها. بل قد تنشغل بجزئية صغيرة وتراهن عليها لوحدتها لتحقيق أهداف النهضة، ولعل هذه النظرة التي تفصل المشكلات عن بعضها وتجزئها هي سبب ذلك الفشل المتكرر لمحاولاتنا النهضوية.
- **غياب النقد الذاتي:** إن المسلم اليوم بمختلف توجهاته يعاني من عقدة رفض النقد، الأمر الذي يجعله يتماهى في أخطائه من دون أن ينتبه إليها، وقد يكون سبب هذا الرفض هو التهرب من تحمل مسؤوليات نتائج الانحرافات التي تحدث بين الحين والآخر في مسيرته النهضوية، بحيث إنه يتم اللجوء إلى اتهام الآخر أحياناً واتهام التراث في أحيان أخرى لتبرير العجز أو الخطأ في مقابل الحذر المفرط من توجيه جهاز النقد والفحص للذات.

- **غياب الوعي المنهجي:** العشوائية في العمل، فبالرغم من وجود النية الخالصة للقيام بالتغيير، إلا أنها ليست الشرط الوحيد؛ بل نحتاج إلى المعرفة الواسعة بسنن التغيير الاجتماعي، وهو العنصر المفتقد في الكثير من محاولتنا النهضوية، بحيث نجعل حتى خصوصيات المرحلة التاريخية التي تمر بها أمتنا. لذا تجد البعض منا يلجأ إلى الماضي البعيد لاستعارة حلول جاهزة أوجدها أصحابها لمواجهة تحدياتهم الخاصة المختلفة زمنياً عنا، وتجد البعض الآخر يلجأ إلى الضفة المجاورة لاستيراد حلول جاهزة أيضاً أوجدها أصحابها لمواجهة تحديات خاصة بمرحلتهم التاريخية المختلفة عنا.
- **الاغتراب الزماني والمكاني:** اتفاق كل من دعاة الإصلاح ودعاة التحديث على تجاهل واقع أمتهم كنقطة انطلاق أساسي لبناء مشروعيهما النهضويين، فعاد دعاة الإصلاح بأفكارهم إلى الماضي للتشبث به والدفاع عنه من دون تمحيص ولا نقد، وتمثل دعاة التحديث مذاهب فكرية غريبة لها واقعها الخاص الذي نشأت فيه. وبالتالي فهذا الاغتراب الزماني والمكاني هو الذي أدى إلى التفتيق والفضى أحياناً وإلى اصطدام الجهود أحايين أخرى مما عرقل السير في طريق النهوض.

الموقنات الموضوعية [الحضارة الغربية]

- وفي مقابل هذه الأمراض الداخلية التي ظلت تنخر جسد الأمة فكراً ونفسياً واجتماعياً نجد حاجزاً خارجياً يتمثل في الاستعمار (الحضارة الغربية) الذي يرفض أن يتحول العبد إلى سيد يتخذ قراراته بكل حرية ومسؤولية. كما يرفض تعدد أقطاب الحضارة الإنسانية ومراكزها، كل هذا يدفعه لإجهاض أي مشروع نهضوي أو تحرري يحاول تحقيقه المستضعفون. وهناك مجموعة من الأدوات والآليات التي يوظفها الغرب كقيود وحواجز تمنعنا من تحقيق أهدافنا الإنسانية والحضارية ونذكر منها:
- العمل على اختراق مختلف المبادرات التي يهدف أصحابها لتغيير أوضاعهم وأحوالهم، من خلال إدخال مجموعة من المتغيرات تساهم في الانحراف بها عن هدفها الرئيس للمحافظة على المصالح الاستعمارية وإجهاض المبادرات الأصيلة من خلال إبعادها عن مسارها الصحيح.
 - تسخير إمكانيات مادية كبيرة وإمكانيات بشرية عالية المستوى للاستعلام عن حركة الأفكار للتخلص منها إما بتشيؤها والانحراف بها إذا كانت فعالة وإما بتضخيمها وتوسيع نشرها والترويج لها إذا كانت متوافقة مع مصالحه.
 - توظيف الاستشراق في عملية الصراع الفكري لارتباطه بمؤسسات الاستعلامات التابعة للاستعمار، وإذا كان دور الفريق الذي حاول تقزيم أو إلغاء دور الحضارة الإسلامية المساهمة في المنجزات الإنسانية واضح للغاية فإن دور الفريق الثاني الذي نصفه بالموضوعي هو الآخر مؤسسة لإنتاج مخدرات تمجيد الماضي الزاهر للأمة للانبهار به عوض مواجهة تحديات الواقع المختلف.
 - اهتمام الغرب بالبعثات الطلابية للانحراف بها عن طريق طلب العلم لتعود بالشهادة الأكاديمية ولكن من دون زاد علمي ومعرفي، فتوظف كأداة لتكريس الرداءة والتشجيع عليها في أوساط النخبة المثقفة، وفي حالة ما إذا أثبت بعضهم امتيازهم فسيحيطه بالتسهيلات والإغراءات من كل جانب لبقاء هناك. بل تغلق كل الأبواب في وجهه إذا ما عاد إلى بلاده، لأن أعداء النجاح يرفضون وجود الممتمارين بينهم.
 - تحطيم قدرات الإنسان المسلم من خلال الانحراف بسلوكاته إلى ميدان الوقاحة والرذيلة وذلك من خلال محاربة القيم الأخلاقية بمختلف الطرق وتشجيع دعاة الانحلال بأسماء مختلفة، ويهدف بذلك إلى تفكيك الروابط الأخلاقية لتمزيق شبكة العلاقات من جهة وإلى تغيير البنية الثقافية السائدة من جهة أخرى بالإضافة إلى المحافظة على حالة التخلف.

- تشجيع التعصب للأنا سواء كأفراد أو كجماعة، لينقسم المجتمع إلى فريقين متناحرين فريق يتخذ من الغرب ملهما له فيستسلم له خاضعا مستكيناً ويرفع ألوية الدفاع عنه، وفريق ثانٍ يجعل من الغرب شيطانا بليدا فيظل يواجهه بانفعال متزايد، والواقع أن الفريقين من صنع مخابر الصراع لأن ما يؤول إليه نشاطهما في النهاية هو النتيجة نفسها، وهي إبعاد المسلم عن واجباته اليومية وتحدياته الواقعية وتخديره إما بانبهاره بالغرب وإما بالحماس والانفعالات التي لا معنى لها في صناعة الحضارة.
- تأثير الغرب مرتبط بجانبين، جانب سلبي وجانب إيجابي، فأما الأول فيتمثل في خطئه ومؤامراته لتحطيم الأفكار الفعالة والعملية وتفكيكها، وأما الثاني فيتمثل في خلق أفكار مناسبة له ولمصالحه، ويسعى لنشرها لتصبح جزءاً من يوميات أبناء الشعوب الإسلامية، بل إن حماسة الشعوب وانفعاليتها تجعلها تنظر إلى هذه الأفكار بأنها من الضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنها.

ما هو سبيل النهوض بالمسلمين؟

لا بد من الخروج من النزعة الانفعالية التي تتجاهل الحاضر تجاهلاً تاماً بسبب الانبهار بمنجزات الغير سواء من القدماء أو الغربيين. ولا بد من بناء مشروع للنهضة قائماً على التحليل العلمي والعقلاني لظاهرة التخلف الحضاري الذي تعيشه الأمة، بحيث تقوم بداية بتحديد المرحلة التاريخية التي نعيشها، وانطلاقاً من خصوصيات هذه المرحلة، نحدد الخصائص النفسية والفكرية والاجتماعية لإنسانها؛ والتي تتمثل في أهم المعوقات الذاتية التي وقفت في وجه المحاولات النهضوية ومنعتها من تحقيق أهدافها الحضارية. نقوم بتفكيك معوقات النهضة وبناء مشروع جديد بناء على تحليل لمظاهر وأسباب التخلف وصياغة رؤية كلية تستوعب مختلف أبعاد النهضة، ونصمم منهجاً قابلاً للتطبيق نظرياً وعملياً يحقق أهدافنا من النهضة.

- **الإنسان محور عملية النهضة:** إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان، ثم بتعليمه الانخراط في الجماعة ثم بالتنظيم فالنقد البناء. وتبدأ عملية التطور من الإنسان لأنه المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء، وتحقيق قفزات نوعية، تمهيداً لظهور الحضارة. فالمجتمعات في حاجة عندما تريد بناء أو إعادة بناء نفسها إلى الإنسان الجديد الذي يوظف كل طاقاته وإمكاناته مهما كانت بسيطة. ولكي تعود (المجتمعات) من جديد إلى ساحة الفعل الحضاري لابد من أن تعيد صياغة هذا الإنسان وتوجيهه عبر:
 - توجيه الثقافة. - توجيه العمل. - توجيه رأس المال.

وهي الأمور التي يمكن من خلالها للإنسان أن يؤثر في واقعه؛ أي: إنه يؤثر بفكره وعمله وماله. فلولو الوصول إلى الحضارة المرجوة خطوات وألويات يجب تحقيقها حتى تكون الحضارة مبنية على قواعد راسخة متينة ومعظم هذه التغييرات يجب أن تحدث أولاً في الفرد نفسه قبل أن نرى أثرها في الواقع الاجتماعي. ولتحقيق التغيير لا بد من تغييرين، تغيير ما بالقوم (الوضع الاجتماعي)، وتغيير ما بالأنفس. وما يؤكد على هذا القول هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فتغيير الإنسان وإعادة صياغة وتخليصه من تخلفه شرط لازم ليحقق التغيير الحضاري الشامل للأمة. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، حيث إنه غير من أنفس الأفراد أولاً، وشكل شخصياتهم الإسلامية، ثم بنى بهم الدولة والأمة والحضارة.

- **من التكديس إلى البناء:** إن العالم الإسلامي بدأ يتجه إلى جمع الأكوام من المنتجات الحضارية أكثر من اتجاهه إلى بناء حضارة وهو ما يسمى بالتكديس. فينتهي بنا الأمر إلى ما أسماه مالك بن نبي بالحضارة الشينئية؛ أي: إن التكديس لا يعني البناء لأن البناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة التي تكون منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكون الحضارة. وقد يتساءل شخص ما الذي نأخذه من الحضارة الغربية؟ وللإجابة على ذلك يقول مالك: إن علينا أن نأخذ من الحضارة الغربية الأدوات التي تلزم في بناء حضارتنا حتى يأتي يوم نستطيع فيه الاستغناء عنها بمنتجاتنا.
- **دور الأفكار في البناء الحضاري:** هناك أهمية كبيرة للأفكار وتأثيرها على الفرد والمجتمع وبناء الحضارات؛ فالفكر ركيزة هامة في حياة الشعوب، ودليل على حيويتها وتقدمها، أو على العكس دليل على جمودها وتخلفها لأن نتاج العقل البشري الذي خلقه الله لهذه الغاية فالنجاح الفكري وسيلة للقضاء على الأفكار الميتة لأن تصفية الأفكار الميتة وتنقية الأفكار المميتة يعدان الأساس الأول لأية نهضة حققة. وكذلك فإن انحراف الأفكار عن مجراها بالنسبة للأفكار الجوهرية تبين لنا مقدرا عدم فعالية المجتمع مما يؤدي إلى الزيغ من جيل إلى جيل عن طريق الامتناس وتعتبر الأفكار في هذه الحالة هي الجراثيم التي تكون كالعنود الاجتماعية لنقل الأمراض؛ فينعكس المرض على المجتمع، وأحياناً قد يحدث انعكاس الفكرة المرودة فيعود ذلك بالخير بسبب اكتشاف بطلانها.
- **ثقافة النهضة وثقافة التخلف:** ما دامت الثقافة هي ذلك المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته وسلوكه فإن أنماط الشخصية والسلوك الإنساني هي تجسيد واقعي لما يلقاه الفرد في بيئته الاجتماعية. ولتقرب الصورة أكثر ونحو المثل الذي دُلّ به ابن نبي على وظيفة الثقافة عندما شبهها بوظيفة الدم الذي يغذي جسم الإنسان نتصور من الناحية البيولوجية أن هذا الدم يحمل في تركيبته جراثيم قاتلة، ونتصور أن مناعة هذا الإنسان تتناقص بتقدمه في العمر فإن هذه الجراثيم تزداد خطورتها على حياته، فهي إن لم تقتله جعلته عرضة للمرض والوهن. كذلك الثقافة في مراحل تخلف المجتمعات تتولد في نطاقها السلبيات وتتراكم مع الزمن لتحمّل في طياتها أفكاراً قاتلة أو ميتة يمتصها جسم المجتمع، فتقضي على فعاليته وعلى تحضره وتقوده عند نهاية دورة حضارته إلى التخلف والانحطاط. فعندما يبدأ المجتمع مسيرته الحضارية تكون كل قواه حية ومتحركة، تلك التي تنعكس أيضاً في نفسية الإنسان المتحضر من خلال ما يلقاه في بيئته من مسوغات دافعة وأفكار حية وطاقت محرّكة وضمانات تتيح له أن ينمي قدراته الذاتية، فتشكّل فيه قيمة الفعالية التي تمكنه من أن يستغل ما بين يديه من وقت وترايب. وعندما تدخل المجتمعات إلى مراحل تخلفها تخمد حركتها الدافعة، وتفقد مسوغاتها ويصبح الفرد كلاً فاقداً لفعاليته لأن ثقافته التي ورثها من عصور الانحطاط عبر وراثته الاجتماعية، لم تستطع أن تمنحه الفعالية التي يؤثّر بها في محيطه، فأحكامه وسلوكاته هي الترجمة الواقعية لما انطبع في نفسيته من قيم وعادات سالبة امتصها من محيطه الثقافي. وعلى هذا الأساس تبرز العناية بالمسألة الثقافية، فهي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري. ولكي يحقق المجتمع تألقه في التاريخ، ويقضي على ضروب التخلف والأفعالية ينبغي أن نغير عالمه الثقافي، وأن نضع الإنسان أمام ضرورات جديدة تفضي إلى تغيير معادلته الشخصية التي زيّفها عهد الكساد، وهذا هو رهان الثقافة الأساس؛ أي: أن نعيد الإنسان الخارج من دورة حضارية بعد أزمة تاريخية إلى الحضارة، وأن ندخل الإنسان السابق على الحضارة إلى دورة حضارية جديدة. وهو التحدي الذي يقف أمام المجتمع الإسلامي .

انتهاء المجازة الرابعة عشر

